الطبعة الثانية

د. عبد الرحمن صالح العشماوي

المكابرون

العبيكان
Obeikan

المكابرون

د. عبد الرحمن العشماوي

مكتبة ونشر
العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

النـاشــــر

الرياض – العليا – طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بين المكابرة والكِبْر

من الكِبْر تنشأ المكابرة، وفي أحضانه ينشأ العناد، وتحت رعايته ينمو سوء الخلق، والعنف، وغلظ الطبع وقسوة التعامل، لأن المكابر متكبِّر، والمتكبِّر لا يرى أبعد من أرنبة أنفه، ولا يسمع صوتاً غير صوت نفسه.

ولذلك كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أبعدَ الناس عن المكابرة، وعن الكبر الذي ينتج عنه سوء الخلق، لأنهم دعاة مصلحون، جاؤوا ليرقوا بالبشرية إلى ذروة العبادة لله، ومن كان مصلحاً صالحاً، فلا يمكن أن يكون متكبراً مكابراً.

ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه في كتابه الكريم: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: 159].

وهو المعنى المفهوم من وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾**﴾ [لقمان: 18-19].

إن المكابرة داء خطير تنشره بين الناس جرثومة الكبر القاتلة، التي لا ينجي منها إلا دواء التواضع لله تعالى؛ لأن من تواضع لله رفعه الله.

ومشكلة أهل المكابرة والكبرياء أنهم يقعون في الوعيد الشديد،لأن الكبرياء صفة خاصة بالله عز وجل المتفرِّدِ بصفات الكمال والجلال.

أما البشر فإن الكبرياء منهم سقوط وانحدار، لأنهم ناقصون؛ فهم بمكابرتهم يدَّعون ما ليس لهم.

قال الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «**العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذَّبته**».

وورد في الحديث الآخر الصحيح: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كبر** فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: **إن الله جميل يحب الجمال**».

الكِبْر: بطر الحقِّ وغمط الناس.

ومعنى «غمط الناس»: احتقارهم.

إنَّ المكابر المتكبِّر يسلك طريق الهلاك بنفسه، مخدوعاً عن النتيجة المؤلمة، بما يتحقَّق له من متعة التعالي الزائفة.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن ذلك في حديث حسَّنه الترمذي، جاء فيه: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه، حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**».

وما الذي يصيبهم؟؟

يجيبنا رسول الله ﷺ بقوله: «**يحشر المتكبِرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: «بولس» تعلوهم نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار طينة الجنال**».

هكذا تكون النهاية مؤسفة لمن خرج بنفسه عن إطارها الصحيح، ولمن تعالى وتكبَّر، وطغى وتجبَّر.

لقد نقل ابن كثير في الجزء الأول من البداية والنهاية حديثاً قال عنه: إنَّ إسناده صحيح، جاء فيه:عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبَّة سيحان مزرورة بالديباج فقال: ألا إنَّ صاحبكم هذا «يعني النبي ﷺ» قد وضع كلَّ فارس بن فارس، ورفع كلَّ راع بن راع.

قال: فأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام بمجامع جبَّته وقال: «**لا أرى عليك لباس من لايعقل**».

ثم قال له: إنَّ نبيَّ الله نوحاً عليه السلام لمَّا حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية.

ـ آمرك باثنتين.

ـ وأنهاك عن اثنتين.

آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفّة، ووضعت «لاإله إلا الله» في كفّه رجحت بهنَّ «لاإله إلا الله».

ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقةً مبهمة، فضمَّتهنَّ «لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده» فإنَّ بها صلات كلِّ شيء، وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن: الشرك والكبر.

قال ابن عمر، قلت: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟

قال عليه الصلاة والسلام: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا حُلّةٌ يلبسها؟

قال عليه الصلاة والسلام؟: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال ﷺ: لا.

قال: فهل هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال ﷺ: لا.

قال: قلتُ، أو قيل: فما الكبر يا رسول الله؟

قال: «**سفْهُ الحقِّ وغَمْضُ الناس**».

وأقول: ياله من تحديد نبوي بليغ واضح لمعنى الكبر، وياله من تواضع نبوي عظيم يجعل الصحابة يسألون أسئلة متكررة بهذه الصورة، والرسول عليه الصلاة والسلام ,يصغي إليهم هذا الإصغاءَ، ويجيبهم هذه الإجابة الواضحة!.

ومعنى سفهُ الحق: الاستهانة به.

وغمض الناس: احتقارهم مثل غمطهم.

هذا هو المعنى الشرعي الواضح للكبر والمكابرة.

أما ما ورد في كتب التاريخ والسِّير عن المكابرين، والمتكبرين من أخبار وقصص فهو من العجائب التي تستحق الاطلاع عليها.

ـ مواعظ وعبر.

ـ مواقف عجيبة.

ـ نهايات عجيبة.

ـ حقيقة لا تقبل الشك.

«ماتزال المكابرة بصاحبها حتى تهلكه ومايزال الكبر والعناد بصاحبه حتى يهوي به في مكان سحيق».

ومايزال الظلم والعنف والطغيان، تحطِّم أصحابها، وترسم لهم أبشع النهايات.

في الصفحات القادمة من هذا الكتاب، قصص لعدد من المكابرين تفتح أمامنا أبواب «**الموعظة والعبرة**» في أجلى صورها.

فأهلاً بكم ومرحباً

عبد الرحمن صالح العشماوي

المكابرون

لايخلو عصر من العصور، ولا مجتمع من المجتمعات البشرية من المكابرين، الذين يرون الحقَّ ولا يتَّبعونه، ويسمعون نداءه ولا يستجيبون له، ويبقون في باطلهم مصرِّين عليه مهما كان الحق واضحاً أمام أعينهم.

والمكابرون من البشر ليسوا من طبقة واحدة فمنهم الغني والفقير، والكبير والصغير، والعالم والجاهل، وقد ورد في السنَّة النبوية المطهَّرة حديث عن «العائل المستكبر» والمقصود بالعائل الفقير الذي لا مال له، بل يحتاج إلى من يعوله، وهو مع ذلك يتعالى ويتكبَّر ويرفض قبول الحق.

إننا نرى المكابرين في حياتنا الدنيا بصور مختلفة، ومستويات مختلفة، وندرك ما هم فيه من الشقاء، وضنك العيش، وضيق الصدر، وعدم قبول النصيحة وكلمة الحق، فنشعر بالشفقة عليهم، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

ولقد وقفت من خلال تجاربي في الحياة على نماذج من المكابرين، وتأمَّلت حالهم، ورأيت رأي العين النهايات المؤسفة لبعضهم، فوقر في نفسي أن أكتب شيئاً عن هذا المسلك المشين، وكتبت مقالاً قصيراً في زاويتي «دفق قلم» في جريدة الجزيرة عن المكابرين وأحوالهم، مع النصيحة لهم، فوجدت من الصدى لذلك المقال ما دفعني إلى فكرة هذا الكتاب.

توقفت وقتاً أما خطَّة الكتاب، هل أتناول فيه بعض القصص العامة من خلال الواقع المعاش؟ أم أتناول فيه روَّاد مدرسة «المكابرة» الكبار عبر التاريخ لأنَّ حياتهم حافلة بمظاهر تستحق الوقوف عندها، وفيها صورة متكاملة للمكابرة لا تكاد تخرج عنها حياة المكابرين في كل زمان ومكان؟

واستقر رأيي على تناول حياة «قدوات المكابرين السيِّئة» عبر التاريخ.

ثم تساءلت: كم عدد المكابرين البارزين عبر التاريخ إلى يومنا هذا؟ وبحثت سريعاً فوجدت أنني أمام عدد لايمكن استيعابه، وأنَّ كتاباً ضخماً ذا أجزاء كثيرة لن يستوعب إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعداد الكبيرة وبعد قراءة متأملة لحياة بعض المكابرين المشهورين عبر التاريخ، وجدت أن الاقتصار على عدد منهم يعطينا نماذج واضحة للمكابرة، فيها من العظة والعبرة ما يمكن أن ينتفع به الناس، مع ما فيها من الإثارة والتشويق.

«خمسة عشر مكابراً» ملؤوا الحياة ضجيجاً وصخباً، وعاشوها جوراً وطغياناً وظلماً، واعتداءً على الناس وسلباً للحقوق، وغادورها مهزومين مخذولين، قد خسروا دنياهم وآخرتهم خسراناً مبيناً.

لقد كان ودي أن أضمَّ إليهم نماذج من المكابرين المعاصرين البارزين، الذين يحيدون عن الحق وهم يعرفونه ويرونه رأي العين، ولكنني آثرت أن أتركهم لطبعة أخرى من هذا الكتاب، أو كتاب آخر خاص بهم ـ إن شاء الله ـ لأنني أتوقع لبعضهم نهايات سيئة مثيرة،

تبعاً لسنة الله عز وجل في هذا الصنف من عباده، تلك السنة التي لاتنقطع حتى تنقطع الحياة البشرية عن هذه الأرض؛ إن كنت ممن سيرى نهاياتهم المحتومة مع أنني قد رأيت نهايات بعضهم، كما رآها ملايين البشر من خلال الأحداث الأخيرة في العالم التي تتسابق وسائل الإعلام في عرضها، ونشرها تفاصيلها بالصوت والصورة.

إنَّ المكابرين الذين تناولتهم في هذا الكتاب يقدِّمون لنا أسوأ النماذج البشرية التي توغل في غرورها وغفلتها حتى يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر، وإنَّ حياتهم لحافلة بالمواعظ لمن كان له قلبٌ حيٌّ ونفسٌ مطمئنة تتأثر بالموعظة، وتستفيد من دروس الحياة.

أرجو أن تكون رحلة القراء الكرام ماتعةً مفيدةً مع هذا الكتاب، وما أجمل أن أحظى بالنصيحة والتوجيه، والله المستعان.

د. عبد الرحمن العشماوي

المكابر الأول
«أبى واستكبر»

هو حامل لواء المكابرة بلا منازع، وهو قائد المتمردين بلا منافس، وقدوة العاصين المارقين والخارجين على الأنظمة والقوانين.

أعمته مكابرته، فوقف أمام مالك الملك، وخالق الخلق، ومبدع الكون، ناسياً نفسه، غافلاً عن حجمه، مغروراً بمادة تكوينه «النار» متجاهلاً أنه لم يخلق نفسه، ولم يخلق النار التي خلق منها، وأنه لا حول له ولا قوة في شيء من ذلك.

إنه «المكابر الأول» إبليس نعوذ بالله من شره ووسوسته وعصيانه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34].

هنا موقف عظيم، مخلوق خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه الأسماء كلَّها، ومنَّ عليه سبحانه بكرامته، فجعله كريماً.

ثم أمر الملائكة بالسجود تكريماً لهذا المخلوق، فسجد الملائكة كلهم، إلا ذلك المكابر، فقد أبى أن يسجد، وقد نصّت الآية على سبب ذلك: «أبى واستكبر».

يورد ابن كثير في هذا الشأن عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنّ، خلقوا من نار السَّموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزَّان الجنة.

قال: وخلقت الملائكة كلُّهم من نور، غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار.

فأول من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدِّماء، وقتل بعضهم بعضاً.

قال: فبعث الله إليهم إبليس في جندٍ من الملائكة ـ وهم هذا الحي الذين يقال لهم الجنّ ـ فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور، وأطراف الجبال، فلمَّا فعل إبليس ذلك اغترَّ في نفسه فقال:

قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطَّلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه. فقال الله للملائكة الذين كانوا معه: «إني جاعل في الأرض خليفة» فقالت الملائكة مجيبين له: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، كما أفسدت الجن، وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا عليهم لذلك؟

فقال: «إني أعلم ما لا تعلمون»، يقول سبحانه: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كِبْره واغتراره.

قال: ثم أمر الله سبحانه وتعالى بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ اللاَّزب: اللَّزج الصَّلب ـ من حمأ مسنون ذي رائحة منتنة، وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب، فخلق منه آدم بيده.

قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، ويصلصل، أي: يصوِّت، قال: فهو قوله تعالى ﴿**مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾، يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمصمت، قال: ثم يدخل إبليس في ذلك الجسد ويخرج، ثم يقول: لست شيئاً، ولشيءٍ ما خلقت،

ولئن سلِّطت عليك لأهلكنك، ولئن سلِّطت عليَّ لأعصينَّك، قال: فلما نفخ الله في جسد آدم من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لايجري منها شيء في جسده إلا صار لحماً ودماً، فلما انتهت النَّفخة إلى سرَّته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ قال: معناها أنه ضجر لا صبر له على سرَّاء ولا ضراء، قال: فلما تمَّت النفخة في جسده عطس فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام من الله له.

فقال له: «يرحمك الله يا آدم»، ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصةً دون الملائكة الآخرين الذين في السماوات:

اسجدوا لآدم، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس «أبى واستكبر» لما كان حدث في نفسه من قبل من الكبر والغرور، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتني من نار، وخلقته من طين.

قال: فلما أبى إبليس أن يسجد، أبلسه الله، أي: آيسه من الخير كلِّه، وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته.

تفسير ابن كثير: الجزء الأول ص 98.

وفي سياق آخر عن ابن عباس قال:

كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمة «عزازيل»، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر والاغترار بنفسه، وكان من حيٍّ يسمَّون جنَّاً.

كان إبليس، اسمه «عزازيل»، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بمعصيته.

وفي سياق آخر أيضاً:

كان إبليس من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وقال ابن عباس أيضاً: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم «الجنّ»، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السَّماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

مع أن الحسن قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قطّ، وإنه لأصل الجنّ، كما أ نَّ آدم أصل الإنس.

وعن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبي إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعبَّد معها، فلما أمرهم الله بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ [الكهف: 50].

قال قتادة:

حسد عدوُّ الله إبليس آدم عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيّ، وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

وقد ثبت في الصحيح:

«**لايدخل الجنَّة من في قلبه مثقال حبَّة خردل من كِبْر**».

وقد كان في قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرَّحمة، وحظيرة القدس.

«وكان من الكافرين»: الذين أبوا واستكبروا وعصوا، أيّ إنَّ عصيانه جعله من الكافرين المبعدين عن رحمة الله، وجنَّته.

«المكابرة والعناد والغرور» هي أوَّل ما عصي به الله عز وجل، وهي أوَّل ما هلك بها مخلوق من مخلوقات الله.

إنها الأساليب الشيطانية التي بدأ بها إبليس فكان من الهالكين.

الكبرياء ليست للمخلوقات الضعيفة، إنما هي لله القوي العزيز، فالمخلوق مخلوق، سواءٌ أكان خلقه من التراب، أم من النور، أم من النار، مع وجود التَّمايز بين هذه العناصر.

أما الخالق القادر فهو الذي تليق به الكبرياء.

هذا هو المكابر الأوَّل الذي فتح باب المكابرة على مصراعيه السَّوداوين، ونفخ نفسه نفخة كاذبة، كانت سبباً في هلاكه وضياعه، واستحقاقه عذاب الجحيم.

إنها صورة قرآنية واضحة للمكابر الأول «الشيطان الرجيم» رسمتها آيات القرآن الكريم ببلاغة وبيان، فما عاد لأحد ممَّن يطَّلع عليها عذرٌ في أن يهلك بالمكابرة والغرور.

لقد كابر «إبليس» فحقَّ عليه غضبُ الله، وظلَّ بعد استحقاقه لغضب الله على كبريائه وغروره، وانطلق بعد المكابرة إلى الكيد والخداع، فأخذ يكيد لأبينا آدم عليه السلام، ويخدعه، ويتظاهر بأنه يريد مصلحته حتى أوقعه في الخطأ الذي أفقده وأفقد ذريته حياة الجنة الناعمة.

ولكن آدم عليه السلام تاب فتاب الله عليه، لأنه كان سليماً من داء المكابرة والاغترار، وداء الحسد والبغضاء. أما إبليس فأبى بسبب مكابرته أن يتوب؛ بل طلب من الله الإمهال ليستمر في ضلاله ومكابرته، فأمهله الله عقاباً له، وابتلاءً لآدم وذرّيته.

أين هو هذا المكابر العنيد؟

هو في هذا الكون، مستمر في مكابرته، وكيده للإنسان، حريص كلَّ الحرص مع جنوده على إهلاك من يستطيعون من البشر بمثل ما هلكوا به.

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ أخبرهم: أنَّ عرش إبليس في البحر، يبعث سراياه في كلِّ يوم يفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة، أعظمهم فتنة للناس.

ويروي جابر عن رسول الله ﷺ «**أنَّ الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلانٍ تركته وهو يقول: كذا وكذا.**

فيقول له إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً.

ويجيء أحدهم، فيقول: ما زلت بفلان فما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله، فيقرِّبه إبليس ويقول له: نعم، أنت، أنت.

أي أنت الذي تستحق الإكرام»

رد في مسند الإمام أحمد

ومن طرائف ما رأيت: أنَّ رجلاً تعرَّض لمحاولات متكرِّرة من رجلٍ آخر، حاول فيها إغراءه لقبول رشوة في موضوع ما، قال: وما زلت أصدُّه، وهو يزيِّنُ الأمر لي، ويهوِّنه، ويسمِّيه بغير اسمه، ويحاول أن يؤكد لي أنه من باب الهدية، وتقدير الجهد، وأنه ما دام ليس فيه ضرر على أحدٍ آخر فليس فيه حرام ولا شبهة حرام، قال: وتخيَّلت صورة إبليس وهو يحلف لآدم وحوَّاء عليهما السلام إنه لهما من الناصحين حتى أغراهما بالأكل من الشجرة المحرَّمة عليهما مستخدماً كل وسائل اللين والرِّقة والإغراء والخداع، والكذب.

فقلت في نفسي: ما هذا الذي يدعوني الآن للرشوة ويهوِّنها عليَّ إلا تابع لذاك الذي هوَّن على آدم وحواء الأكل من الشجرة.

فلما جاءني في إحدى محاولاته، طلبت منه أن يصغي إليَّ قليلاً، ففعل، فذكرت له قصَّة إبليس حتى انتهيت منها، سألته: ما رأيك؟

قال بصراحة: لقد شعرت من خلال روايتك لقصته أنك تتحدَّث عن محاولاتي معك، ثم سكت قليلاً وقال: جزاك الله خيراً، لقد اتضح لي الحقّ.

وأقول: لو أن كلَّ مكابر مخادع مغرور راجع نفسه على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لما وقع في مستنقع المكابرة أبداً.

كابر إبليس فسقط إلى الأبد.

فأيُّ عاقل ـ يا ترى ـ يرضى أن يقتدي بهذا المكابر الأوَّل الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين؟

وأيُّ عاقل يرضى أن ينتسب إلى تلك المدرسة الخبيثة: «**مدرسة الذنوب الشيطانية**».

يقسم بعض أهل العلم الذنوب إلى أربعة أقسام، تتكوَّن منها المدرسة الشيطانية للذنوب التي يشرف عليها ويديرها إبليس ـ لعنه الله ـ.

وهي مدرسة قديمة، خبرة مديرها خبرة عظيمة، ونهاية تلاميذها نهاية أليمة. ومع أن مدير مدرسة الذنوب قد وزَّع ذرّيته على أنحاء الدنيا، وفتحوا الجامعات، والكليات، والمعاهد والمراكز الشيطانية ذات الخبرة العالية في مجال الإغواء والوسوسة والإفساد، وإثارة الشبهات والشهوات.

إلاَّ أنه قد ظلَّ هو محتفظاً بإدارة مدرسة الذنوب الشيطانية القديمة التي أنشأها منذ أن طرده الله من الجنة وغضب عليه.

أما الأقسام الأربعة فهي:

1- قسم الذنوب الشيطانية:

وهو من الأقسام المهمة التي تعلِّم من يدخلها من الإنس والجن أصناف الذنوب التي يتعاطاها الشيطان نفسه وهو قسم كبير يتكون من عدد من الفصول الدراسية الشيطانية:

الحسد ـ البغي ـ الغلّ ـ الخداع ـ المكر ـ الكذب ـ تحسين المعاصي وتهوينها ـ تقبيح الطاعات وتثقيلها ـ البدع ـ الضلال ـ إثارة الشُّبه.

يالها من فصول ذات خطر كبير على الدارسين.

2- **قسم الذنوب الملكية:**

وهو قسم خطير يتكون من عدد من الفصول الدراسية التي تغري الدارسين بما فيها من البريق الذي تنخدع به النفوس المريضة.

ومن أهم فصول هذا القسم:

العظمة ـ الكبرياء ـ الجبروت ـ القهر ـ التَّعالي بغير حقّ ـ استعباد الناس ـ الشرك بالله ـ احتقار الضعفاء ـ.

ونلاحظ أن هذا القسم بفصوله أخطر قسم في هذه المدرسة المشؤومة، لأنه قائم على «الكبرياء» وفي هذا منازعة لله عز وجل، وهذه المنازعة هي طريق الهلاك بلا شك.

3- **قسم الذنوب السبعية:**

وهو قسم مهم يتضمن عدداً من الفصول هي:

العدوان ـ الغضب ـ سفك الدماء ـ السَّطو على حقوق الآخرين ـ الظلم ـ أكل مال اليتيم والمسكين ـ القسوة والعنف.

4 - **قسم الذنوب البهيمية:**

وفيه الفصول التالية:

الشَّره ـ شهوة البطن والفرج ـ الزّنا ـ السرقة ـ البخل ـ الهلع ـ الجزع ـ التهوُّر ـ الجرأة على المعاصي ـ قلَّة الحياء.

مدرسة الذنوب الشيطانية			
قسم الذنوب الشيطانية	قسم الذنوب الملكية	قسم الذنوب السَّبُعيَّة	قسم الذنوب البهيمية
الحسد ـ البغي	العظمة ـ الكبرياء	العدوان ـ الغضب	الشَّره
الغلّ ـ الخداع	الجبروت	سفك الدماء	شهوة البطن والفرج
المكر ـ الكذب	القهر	السَّطو على حقوق الآخرين	الزِّنا
تحسين المعاصي وتهوينها	التعالي بغير حق	الظلم والاعتداء	السرقة ـ الهلع
تقبيح الطاعات	استعباد الناس	أكل مال اليتيم والمسكين	التهور
البدع	الشرك بالله	القسوة والعنف	الجرأة على المعاصي
الضلال	احتقار الضعفاء		قلَّة الحياء
إثارة الشُّبه			

إنها مدرسة الضلال التي رفع صاحبها أسوأ شعارات التمرُّد والعصيان والمكابرة، والحسد الذَّميم.

إن كلَّ من ينتمي إلى المكابرة، يرفع الشعارات نفسها التي رفعها المكابر الأول «الشيطان الرجيم»، فإن النفوس المريضة تستأنس بالشعارات الصارخة التي تصادم الحق:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76].

﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82].

﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 62].

﴿اكْفُرْ﴾ [الحشر: 16].

﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ [النساء: 118].

﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119].

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

هذه هي الشعارات التي رفعها وما يزال يرفعها المكابر الأوَّل صاحب المدرسة الشيطانية المشؤومة، وهي الشعارات ذاتها التي يرفعها دعاة الرذيلة، وحاملوا لواء الضلال والانحراف في كل زمان ومكان فما أجدر الإنسان المؤمن الواعي بالبعد عنها !!.

المكابر الثاني
«فأصبح من النادمين»

هو أوَّل من تخرج في مدرسة المكابرة والبغي والحسد والظلم التي أنشأها المكابر الأوَّل «إبليس» نعوذ بالله منه.

نعم؛ لقد حمل شهادة مدرسة الذنوب الشيطانية، قسم الحسد والبغي والمكابرة بجدارة واقتدار.

لم يتراجع عن بغيه وظلمه، ولم يستجب لدعوة أخيه إلى الحلم، والرحمة والإحسان، وكيف يستجيب لذلك وهو تلميذ نجيب لرائد البغي والحسد والمكابرة الذي خرج من جنة عرضها السماوات والأرض بإصراره على مكابرته؟!

إنه المكابر الثاني «قابيل» بن آدم عليه السلام الذي نفذ أوَّل جريمة قتل في حياة البشرية، وأقدم على أبشع عمل يمكن أن يقوم به أخ مع أخيه.

عن ابن مسعود وغيره من الصحابة ﷺ قال: إنَّه كان لايولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن، جارية هذا البطن الآخر، ويزِّوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما : قابيل وهابيل.

وكان قابيل صاحب زَرْع، وكان هابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهما.

وكان له أخت أحسن من أخت هابيل.

وأنَّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال : هي أختي.. ولدت معي..

وهي أحسن من أختك..

وأنا أحقُّ أن أتزوَّج بها.

فأمره أبوه أن يزوِّجها هابيل، فأبى.

وأنهما قرَّبا قرباناً إلى الله ـ عز وجل ـ، أيُّهما أحقُّ بالجارية.

وكان آدم عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى مكَّة ينظر إليها، قال الله عز وجل لآدم:

هل تعلم أنَّ لي بيتاً في الأرض؟

قال: اللهم لا.

قال: إنَّ لي بيتاً في مكَّة فأته.

فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت.

وقال للأرض: فأبت.

وقال للجبال: فأبت.

فقال لقابيل: فقال: نعم، تذهب، وترجع وتجد أهلك كما يسرُّك.

فلما انطلق آدم عليه السلام «إلى مكة» قرَّب قابيل وهابيل قرباناً، وكان قابيل يفخر على أخيه فقال: أنا أحقُّ بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصيُّ والدي.

فلما قرَّبا.

قرَّب هابيل جذعة سمينة.

وقرَّب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها فأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل.

فغضب وقال: لأقتلنك حتى لاتنكح أختي.

فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.

تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص55

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نهي «آدم» عليه السلام، أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد لآدم في كلِّ بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة "أي: جميلة"، وولد له أخرى قبيحة دميمة.

فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك، وأنكحك أختي.

قال: لا، أنا أحق بأختي، فقرَّبا قرباناً فتقبل «الله» من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنَّ الله سبحانه وتعالى قبل الكبش من صاحبه، فخزنه في الجنة أربعين خريفاً، فهو الكبش الذي ذبحه ابراهيم عليه السلام «فداء لإسماعيل».

وتشير بعض الروايات إلى أنَّ هابيل قدَّم أكرم غنمه وأحسنها وأسمنها وكان طيب النفس بما قدم.

أما قابيل فقدم أشرَّ حرثه، غير طيبة بذلك نفسه، فتقبل الله سبحانه وتعالى قربان هابيل.

وتشير بعض الروايات إلى أن آدم عليه السلام قال لقابيل: يا بنيَّ إنها لا تحلُّ لك، فأبى أن يقبل ذلك من قول أبيه، فأمرهما أن يقربا قرباناً، وقال: أيّكما يقبل الله قربانه يكون أحقَّ بها، فقبل الله قربان هابيل.

وتشير روايات أخرى إلى أن قابيل وهابيل كانا قاعدين، فقالا: لو قرَّبنا قرباناً، ولم يكن في وقتهما مساكين يأخذون الصدقة، وإنما كانت القرابين، فكان الرجل منهم إذا قرب قرباناً فرضيه الله، أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النَّار.

فقرَّبا قربانهما: قربان قابيل من الزَّرع، وقربان هابيل من الغنم، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان أخيه، فقال قابيل لأخيه، أتمشي في الناس وقد علموا بأن قربانك قد قبل، وقرباني ردَّ عليَّ؟

لا والله لا ينظر الناس إليك وإليَّ، وأنت خير منِّي، لأقتلنك.

فقال له هابيل: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

ومهما اختلفت الروايات في شأن هذين الأخوين، فإنَّ أصل القصة ثابت في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والعبرة بما جرى بعد ذلك.

لقد تحركت عوامل الحقد والحسد في قلب قابيل، فأغلقت عليه مسارب الحكمة والرحمة، وأعمت عينيه عن رؤية الحق، وأصمَّت سمعه عن سماع كلمة الحق الواضحة.

لأقتلنك: عبارة صاغها الحقد، وصرخ بها الحسد، ونفَّذها عملياً البغي، وكانت المكابرة هي التي توَّجت الموقف، لأنها جعلت قابيل أعمى وأصمٍّ أمام نصيحة أبيه، وحكمة وسعة صدر أخيه، وإلاَّ لو أنَّ نفسه تواضعت، لما قال ـ أصلاً ـ: لأقتلنك.

ولو أنَّه سلم من مكابرته القاتلة، لتأثَّر بقول أخيه وتراجع عمَّا عزم عليه من اعتدائه الأثيم.

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: 28-29].

كلام صريح واضح لايمكن أن تتجاوزه النفس المتواضعة، والقلب السليم، كلام فيه الموعظة، وفيه الحكمة، وفيه الورع، وفيه التحذير من عذاب الله.

ولكنَّ ذلك كلَّه يتلاشى أمام حقد "المكابر" الذي لم يعد يفقه الحق، ولا يعرف معنى الرفق.

ماذا كانت النتيجة؟

طوَّعت له نفسه المكابرة، ووجدانه المغلق قتل أخيه، فقتله بإصرار وتصميم.

هنا وصل به حقده وبغيه ومكابرته إلى أقصى درجات العنف.

وهنا أصبح من الخاسرين، وهذا إخبار إلهي بأنَّ الخسارة قد أصبحت هي النتيجة الحقيقية لهذا الذي جرى، ويالها من خسارة عظيمة للدنيا والآخرة.

لقد هوت المكابرة بصاحبها إلى أسفل سافلين، فها هو ذا يقلِّد الغراب الذي دفن غراباً آخر في التراب، فيدفن جثَّة أخيه المظلوم، في منظر حزين أليم.

«**فأصبح من النادمين**».

روى ابن مسعود عن النبي ﷺ قوله: «**لاتُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوَّل كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوَّل من سنَّ القتل**».

ونقل ابن كثير عن مجاهد في كتاب التفسير قوله:

عُلِّقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، وجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

وأقول: كم من مكابر وقع في خندق الندم الذي وقع فيه قابيل بعد قتل أخيه.

المكابر الثالث
«سآوي إلى جبل»

كل الدَّلائل التي جرت عبر مئات السنوات، تؤكد أنَّ أولئك القوم في طريقهم إلى الهلاك، نعم، عَبْر مئات السنوات، لأن الفترة التي ظهرت فيها تلك الدلائل القاطعة امتدت على مدى «تسعمائة وخمسين عاماً» «ألف سنة إلا خمسين عاماً».

فما الذي جرى في هذه المدة الطويلة؟

دعوةٌ صادقة، وإرشاد إلى عبادة الله لا ينقطع، وسعيٌ إلى الهداية والإصلاح لا يتوقف، وبيان للحق والخير والهدى والصلاح لا يتراجع، وحرصٌ على نجاة الناس، وخلاصهم من الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

تسعمائة وخمسون عاماً، اتضحت فيها معالم الحق، وظهر فيها الإيمان الصحيح، وتجلَّى فيها الصبر في أرقى صوره وأسماها، كما تجلت فيه مكابرة المكابرين في أبشع صورها وأقساها. في هذه الفترة الطويلة، كان هذا المكابر الثالث يعيش، وكان من أقرب الناس إلى صاحب الدعوة، وحامل لواء الحق والخير والإرشاد والإصلاح، فقد كان يعيش معه في داخل أسرته، يرى حقيقة دعوته، ويلمس صدق عزيمته، ويسمع صافي حكمته، ويطلع على صلاح منهجه وشريعته، ويعرف معرفة اليقين توافق علانيته مع سريرته.

إنه ابن حامل لواء الدعوة، ورافع شعار النبوة، ومبلِّغ تعاليم الرِّسالة، وهل هنالك أقرب من الابن إلى أبيه؟!

وإنَّ من يعيش في هذه الأجواء، جديرٌ بأن يكون أوَّل المستجيبين للحق من الخلق، وأوَّلَ المميزين بين الكذب والصِّدق، وأوَّل المتبعين للإيمان، والمستمتعين بحلاوة اليقين.

لكنَّ هذا المكابر ظلَّ محجوزاً عن هذا الخير كلِّه بمكابرته، بعيداً عن مصادر النور مع أنَّه يخالطها ويراها كلَّ يوم.

إنَّ حجاب المكابرة حجابٌ كثيفٌ غليظ ـ نعوذ بالله منه ـ لا يستطيع من يعيش وراءه أن يرى مصادر النور أبداً ولا يقدر أن يستوعب معاني الخير أبداً، ولا يستطيع أن يعرف طريق النجاة أبداً.

هنالك رجلٌ أصبح على يقين بعد مرور مئات السنوات، أنَّ قومه قد تجمَّدوا على المكابرة، وتيبَّسوا على العناد، ولم يعد للموعظة عندهم مكان، ولا للدعوة فيهم تأثير.

وما داموا كذلك، فماذا تنفع النُّذر مع قوم لا يؤمنون.

إنه «نوحٌ» عليه السلام، نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوج، أول الأنبياء والرسل بعد آدم عليه السلام.

ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام».

فإذا كان المقصود بالقرن ما هو متعارف عليه «مائة سنة» فإن بينهما «ألف سنة».

وإن كان المقصود بالقرن الجيل من الناس كما قال الرسول ﷺ : «**خير القرون قرني..**».

فلربما كان بين آدم ونوح ألوف السنوات لأن الأجيال كانت تطول أعمارها في ذلك الزمان.

بعث الله «نوحاً» عليه السلام إلى الناس بعد أن انحرفوا عن الإسلام، وعبدوا الأصنام، وكان عمره يوم بعث خمسين سنة، في بعض الأقوال، وقيل: إن عمره كان ثلاثمائة وخمسين سنة يوم بعث، وقيل كان أربعمائة وثمانين سنة ـ والله أعلم ـ.

ظلَّ ـ عليه السلام ـ يدعو، ويدعو، ولكنَّ الناس كانوا في غيبوبة شهواتهم، فلم يؤمن معه إلا قليل من قومه، وطال أمدُ دعوته حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي أوقفت نوحاً عليه السلام أمام الحقيقة الناصعة.

﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ [هود: 32].

لم يعد هنالك أملٌ في هؤلاء الناس، ولكنَّ قلب نوح كبير ما يزال يرجو أن تفتح الأبواب المغلَّقة.

ولكنَّ الأمر قد حسم حسماً قاطعاً بعد ذلك حينما أوحي إلى نوح أن قلوب القوم قد أصبحت أقسى من الحجر الصَّلد.

﴿**وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾**﴾ [هود: 36-37].

«إنهم مغرقون».

كيف يكون ذلك؟

قال بعض السلف:

أمر الله تعالى نبيه نوحاً عليه السلام أن يفرز الخشب، ويقطعه ويُيَبِّسَهُ، فكان ذلك في مائة سنة، ونجَّرها في مائة سنة أخرى، وقيل في أربعين سنة ـ والله أعلم ـ.

وقال ابن كثير:

ذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أنَّ الله أمر نوحاً عليه السلام أن يصنع السفينة من خشب السَّاج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً «أي رأساً» أزور «أي: مائل» يشقُّ الماء.

وهنالك آراء أخرى متعددة في طولها وعرضها حتى بلغ بها بعضهم إلى طول ألفي ذراع في عرض مائة ذراع.

واتفق الرواة على أنَّ ارتفاع السفينة كان ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع.

الطبقة السُّفلى للدواب والوحوش.

والوسطى للإنس.

والعليا للطيور.

(1) المانوية ـ ديانة فارسية أسسها ماني وهي مزيج من الزرداشية واليهودية والمسيحية ـ ثنائية تومن بوجود إلهين للخير والشر. (المترجم).

وكان باب السفينة في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبقٌ عليها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: 40].

هذا عمل كبير ظلَّ يجري أمام الناس سنوات طويلة، ولقد كان جديراً بأن يثير في قلوبهم الإحساس بما وراءه لاسيما أنَّهم يعرفون صدق نوح ومثابرته وجدَّه، ولكنَّ داء المكابرة والاغترار أعماهم، فكانوا يسخرون من نوح كلَّما مرُّوا به ورأوه يشتغل في بناء السفينة.

وكان من بين هؤلاء الناس «المكابر الثالث» كنعان بن نوح الذي عميت بصيرته، وقعدت به همَّته، فسخر مع الساخرين، وأعرض مع المعرضين، وهلك مع الهالكين.

لمَّا فار التنُّور الذي كان في بيت نوح وهو علامة وضعها الله لنوح عليه السلام كما تقول الروايات، علم نوح أن عقاب الله قد حان، وأن الطوفان، وما أدراك ما الطوفان، سيغمر الأرض ويغطي كلَّ مكان.

ركب السفينة:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: 41].

هنا رأى نوح ابنه "كنعان" الذي كان منعزلاً عن أبيه في تلك اللحظة، ونادى حينما بدأت السفينة تتحرك، والماء يرتفع:

«يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين»

صورة واضحة لا تحتاج إلى تأويل، وحدثٌ بارزٌ أمام العيون لا يحتاج إلى إعمال ذهن، ونبيٌّ صادق مصدوق، وأبٌ حنون حريص على ولده، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يكن ذا أثرٍ في نفس ابن أعمته مكابرته فما عادت ترى عيناه إلا الجبل الشامخ الذي أمامه.

جبل شامخ ضخم، هامته العالية تكاد تناطح السحاب، هذا كلُّ ما كانت تراه عينا «كنعان بن نوح».

أما ذلك الإيقاع الأبوي الحاني المؤثِّر في صوت الأب الحريص على ولده حينما قال: «يا بني اركب معنا».

فلم يكن ليصل إلى قلب مغلفٍ بالعناد والمكابرة ولهذا كانت الإجابة المباشرة كما جاء في القرآن الكريم: ـ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ـ كلام مادي بشري باهتٌ لا قيمة له في مثل هذا المقام، ولو كان قلب الابن المكابر حيّاً لاستيقظ حينما قال له أبوه نوح عليه السلام مباشرة:

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43].

إنها الجملة الأبويَّة النَّبوية الحانية الأخيرة في هذا المقام، ولكنَّ الابن كان غارقاً في بشريته الناقصة، المنسوجة بخيوط المكابرة الغليظة.

ماذا كانت النتيجة؟

«وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» هكذا تكون نهاية المكابرين، هلاكاً وضياعاً وخسارةً كبيرة في لحظات.

ومضت السفينة ناجيةً من ذلك الطوفان العظيم الذي غمر كلَّ شيء، ولم يبق على ظهره إلا تلك السفينة التي كان يسخر منها الساخرون، ويستهزيء بمن يبنيها المكابرون.

ومضت السفينة باسم الله تعالى مائة وخمسين يوماً كما تقول الروايات، حيث انطلقت في عاشر شهر رجب، واستقرَّت بهم على الجوديِّ شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرَّم، ويقال: إنهم صاموا هذا اليوم شكراً لله على نجاتهم.

أينَ يقع جبل الجوديّ؟

قيل: إنه جبل بالموصل، وقيل: هو الطور، وقيل هو جبل بالجزيرة في أرض العراق تواضع لله سبحانه وتعالى فلم يغرق، وقد غرقت كل الجبال.

قال قتادة فيما نقله عن ابن كثير في تفسيره:

قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي بأرض الجزيرة عِبْرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة.

هبط نوح ومن معه إلى أسفل جبل الجودي، فابتنى قرية تستوعب الثمانين الذين كانوا معه، فسميت: «قرية الثمانين».

قال ابن كثير: فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربي، وكان نوح يخاطب كل فئة منهم بلسانها.

هنا استقرت الأمور، وهلك المكابرون، وقضى عليهم الطوفان ـ بإذن الله ـ بعد مئات السنوات من الإنكار والجحود.

وهنا استيقظت عاطفة الأبوَّة من جديد:

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

نوح هنا يستفهم من ربّه عن حال ولده الذي أبى أن يركب السفينة فغرق، وفي ذهنه عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى له: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40].

فالأهل هنا عامة لا استثناء فيها كما يبدو لأوَّل وهلة مع أن الاستثناء قد أتى مباشرة بعد هذا الجزء من الآية: ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

سؤال من أب حنون، من قلب الأب الذي لا يحمل إلا الحب والعطف والشفقة على الإبن.

سأل نوح ربَّه سؤال استعلام مشيراً إلا أن الله وعده بنجاة أهله، وأنَّ وعده الحق، متأدباً مع ربِّه سبحانه كلَّ التأدُّب حين قال: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

هنا كان الجواب الإلهي الحاسم.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46].

لقد خرج الابن «كنعان» عن دائرة الأهل الذين وعد الله بنجاتهم، فالله قد وعد بنجاة من آمن، وهذا الابن لم يؤمن فكان ممن سبق عليهم القول، وكانت نهايته المؤلمة مناسبة لعناده ومكابرته وعدم إيمانه.

هنا هدأ جيشان العاطفة الأبويّة، وبرز الشعور العميق بالإيمان واليقين والاطمئنان، وطلب المغفرة من ربِّ العالمين.

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42].

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43].

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 43].

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: 43].

هكذا كانت نهاية المكابر الذي أضاع دنياه وآخرته لأنه باع عقله لهواه.

«اللهم إنا نعوذ بك من الضلالة بعد الهدى»

مسائل

ذكر صاحب كتاب «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار خمس مسائل تتعلَّق بقضية نوح عليه السلام، وقومه، وابنه، وزوجته، والسفينة، رأيت في طرحها هنا ما قد يضيف إلى معلوماتنا عن قصة نبي الله نوح عليه السلام ما فيه فائدة.

المسألة الأولى:

هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟

الجواب:

من العلماء من قال بعموم الطوفان على الأرض كلها، ويشير بعض علماء الجيولوجيا إلى وجود بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء، في أعالي الجبال، وهذا يشير إلى وجود طوفان كان سبباً في ذلك:

ومن العلماء من قال بعدم عموم الطوفان على الأرض، بل كان على جهة من الأرض كان فيها نوح وقومه، ومن يعيش على الأرض من البشر.

أما القرآن الكريم فلم يشير إلى شيء من ذلك، وإنما عرض الموضوع عرضاً عاماً بدون تفاصيل، ولم يرد شيء ثابت في السنة يحدِّد هذا الموضوع.

أما موقفنا نحن فهو الإيمان بحقيقة القصة ووقوعها، ويظل عموم الطوفان على الأرض، وخصوصه على جزء منها أمرين محتملين، كلاهما في الحكم سواء.

وقد غلَّب صاحب كتاب قصص الأنبياء الخصوص بقوله: والذي أميل إليه أن يكون «الطوفان» خاصاً، وأن النوع البشري لم يكن منتشراً في الكرة الأرضية كلِّها، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح عليه السلام وذريته ومن معه.

قصص الأنبياء: ص36

المسألة الثانية:

ما ذنب الأطفال الأبرياء الذين هلكوا مع قوم نوح من أبنائهم وأحفادهم؟

الجواب:

إنَّ عموم ما يقدِّره الله على البشر من مظاهر الابتلاء أو العقاب معروفة على مدى الزمن، فهي داخلة في قضاء الله وقدره الذي لا يردُّ، فمتى حان أجل الناس صغاراً أم كباراً وقع بإرادة الله.

وهذه الزلازل والأعاصير والحوادث المختلفة تختطف الصغار والكبار والمجرمين والأبرياء، والمحسنين والمسيئين، فلا يملك الناس إلا الصبر والرِّضا بما قدَّر الله سبحانه وتعالى.

ولكل واحد من هؤلاء عند ربِّه مقام معلوم.

المسألة الثالثة:

أين جبل الجودي الذي استوت عليه السفينة؟

الجواب:

يقول النجَّار صاحب كتاب قصص الأنبياء: جبل الجودي في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وهو يتصل بجبل أرمينية.

قال في القاموس المحيط: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويطلق عليه في التوراة إسم «أراراط».

المسألة الرابعة:

ما حجم سفينة نوح؟

الجواب:

لم ينص القرآن الكريم على ذلك، وإنما وصفها الله بـ «الفلك المشحون» وبأنها «ذات ألواح ودسر» والدُّسر هي: المسامير.

أما في كتب بني إسرائيل فقد ورد حديث عن حجمها أشرنا إليه سابقاً، والمهم في الأمر أنها سفينة كبيرة استوعبت نوحاً ومن معه، وكانت سبباً لنجاتهم من الطوفان الذي هلك به المكابرون.

المسألة الخامسة:

هل كان ابن نوح المذكور في القصة ابناً له حقيقة أم لا؟

الجواب:

1- ظاهر ما ورد في القرآن الكريم يفيد أنه ابنه حقيقةً، فهو من أهله، وإنما نفى الله سبحانه وتعالى عنه الأهلية في قوله: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود: 46] لأن أهليته سقطت بكفره ومكابرته فهو عمل غير صالح، وهو ممن سبق عليه القول من الذين كفروا، وهو داخل في دعاء نوح على قومه:

﴿**لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ [نوح: 26]. ﴿**وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا**﴾ [نوح: 28].

كما أنه خارج من أهل نوح بسبب كفره فلم يدخل في دعاء نوح ـ عليه السلام ـ الآخر: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [نوح: 28]. فشرط الإيمان هنا، يخرج ابن نوح من دائرة أهله.

2- هنالك من قال إن هذا الابن لم يكن ابناً لنوح من صلبه وإنما هو ربيبه ابن زوجته من رجل آخر، فكان نوح عليه السلام يناديه "ابنه" لأنه تربَّى عنده ولا دليل على هذا القول.

3- هنالك من قال: إنه ابن نوح من حيث ولادته في داره، لكنه لأب آخر جاءت به زوجة نوح عليه السلام بطريقة غير مشروعة. ويستدلون على هذا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود: 46].

وبقوله تعالى في الآية العاشرة من سورة التحريم:

﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا**﴾ [التحريم: 10].

حيث ذكرت الآية هنا «الخيانة».

وقد أشار صاحب كتاب «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النَّجار إلى أنه لا يؤيِّد هذا القول، وإنما يؤيد أنه ابن نوح عليه السلام حقيقةً، ولكنَّه لايرى حقاً مع الذين رفضوا هذا القول جملةً وتفصيلاً لأن الخيانة الزوجية لا يمكن أن تقع من زوجات الأنبياء لما في ذلك من الهجنة على النبي.

النجَّار يقول: وقد فات هؤلاء أنَّ الكفر أشد ذنباً من الزنا، وامرأة نوح قد ضربها الله مثلاً للكفر، ومن أتى الذنب الأكبر هان عليه الأصغر.

وأقول:

لقد أخطأ النَّجار في هذا التعليل، فالكفر أكبر من الزنا، ولكن الزنا ذو مساس بعرض النبي، فهو لايصح أبداً من زوجته، وإنما كانت خيانتها لنوح أنها كانت تنال منه في غيابه وتقول: إنه مجنون كما ورد عن ابن عباس. كما أن خيانة زوجة لوط كانت متعلِّقة بأنها دلَّت الناس على ضيفه دون علمه.

إن الكفر عمل شخصي يتعلَّق بصاحبه، أما الزنا فعملٌ متجاوز للمرأة إلى زوجها وأبنائها وهذا ما لايليق بزوجة نبي حتى وإن كانت كافرة.

إن مكابرة ابن نوح عليه السلام، وكفره وعصيانه وإصراره على ذلك هي التي جعلته من المهلكين مع أنه ابن نوح عليه السلام.

المكابر الرابع
«الأحمر الأزرق القصير»

الحق دائماً أبلج، لا تتعب الأذهان في سبيل معرفته، ولا تعجز القلوب عن الإحساس به، اللهم إلاَّ إذا حال دون معرفته الحقِّ حائل، من كبرياء وغرور تنشأ عنهما مكابرة وإصرار على الباطل.

هنالك في جانب من جزيرة العرب كان يعيش قوم من العرب عيشة رغدٍ ونعمة، وقد شطحت بهم الأهواء حتى انحرفت بهم عن عبادة الله عز وجل.

وحينما بعث الله سبحانه وتعالى إليهم نبيَّه صالحاً عليه السلام قابلوه بالجحود والنكران، والمكابرة والعناد، ولم يفلح في هدايتهم إلى طريق الصواب، ثم إنَّهم طلبوا منه تعجيزاً ومكابرةً أن يخرج الله لهم من صخرة صمَّاء عيَّنوها له ناقة عشراء تمخض، وكانت الصخرة التي أشاروا إليها منفردة في ناحية من بلادهم المعروفة باسم «الحجر» وكانوا يسمون تلك الصخرة «الكاتبة»، عند ذلك أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمُنَنَّ به وليتّبُعنَّه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا ربّهُ عز وجل، فتحرَّكت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن «ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها» على الصفة التي طلبوها.

عند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جندع بن عمرو» وآمن معه أتباعه، وأراد بقيَّة أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدَّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، ومعه «الحباب» صاحب أوثانهم.

وكان لجندع بن عمرو ابن عمٍّ له يُدعى «شهاب بن خليفة» وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم فنهاه ذلك الرَّهط (أي الجماعة) الذين لم يسلموا، فأطاعهم، واستسلم لهم.

أقامت الناقة ومعها فصيلها الذي وضعته بين أظهرهم مدّة من الزمن تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها في اليوم الذي تشرب هي فيه الماء، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم.

كانت الناقة ذات حجم كبير وخلق هائل ومنظر رائع، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها.

وكانت تسرح في بعض الأودية، ترد من فجٍّ، وتصدر من غيره ليسعها، لأنها كانت في يوم شربها تتضلَّع من الماء (أي: تشرب شرباً هائلاً).

هنا نتساءل: أليست هذه آية عظيمة؟ ألم يستجب الله سبحانه وتعالى لطلبهم الذي طلبوه ووعدوا أن يؤمنوا بالله إذا تحقَّق؟.

لنا أن نتخيَّل الصورة، حتى نستشعر عظمتها.

هذه صخرة صمَّاء كبيرة جامدة لا روح فيها ولا حركة، فهي أبعد ما تكون عن الحياة في نفسها، فكيف يخرج منها كائنٌ حيٌّ مهما كان صغيراً.

قومٌ عتاة مكابرون لم يستجيبوا لنبيهم، ولا يريدون أن يستجيبوا له، طلبوا طلباً يرون أنه مستحيل التنفيذ، وإنما طلبوه تعجيزاً.

هنا في هذه اللحظة، بعد أن طلبوا طلبهم الغريب، تنفرج أمامهم الصخرة الصمَّاء لتخرج منها ناقة عظيمة حامل.

هنا تحققت المعجزة بإرادة الله، فما الذي منع القوم من التصديق؟

المكابرة، لقد أقامت حاجزاً كبيراً بين عقولهم وبين التفكير السليم، وبين قلوبهم وبين الإيمان والتصديق.

فريقٌ منهم انكسر حاجز المكابرة في نفوسهم بحدوث المعجزة فأعلنوا إيمانهم، أما الآخرون فقد أصرُّوا على كفرهم، وكابروا، وبذلوا جهوداً كبيرة لصرف من أسلم عن إسلامه، ونجحوا مع بعضهم.

أريتم كيف تفعل المكابرة، وماذا يصنع الغرور؟!

هل وقف القوم عند هذا الحد؟!

كلاَّ....

فقد ضاقوا بالناقة ذرعاً، مع أنها كانت تسقيهم اللبن في اليوم الذي تشرب فيه الماء، فهم يشربون الماء يوماً، ويشربون اللبن يوماً.

لقد سعى المكابرون بين قومهم في شأن الناقة، وأقنعوهم بأنها تتسلَّط على مراعيهم فتخاف منها مواشيهم، وتتسلط على مائهم فتحرمهم منه يوماً.

المكابرة هنا تقف حاجزاً دون الاتعاظ بمعجزة الناقة، ونحن نعلم أن المكابر مغلق القلب أمام الحق.

ماذا جرى بعد ذلك؟!

بعد أن آنسوا من قومهم شعوراً بالتضايق من الناقة عزموا على التخلُّص منها.

ويلهم: ألم يطلبوها..؟ ألم يحدِّدوا أوصافها حينما طلبوها..؟ ألم يعاهدوا نبيَّهم صالحاً عليه السلام، على السمع والطاعة إذا أجيب طلبهم؟

بلى، كل ذلك كان، ولكنَّ المكابرة تقف حاجزاً دون معرفة الحق.

عزموا على قتل الناقة.

كيف؟

كانت هنالك عجوز شمطاء يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مجلز» وتكنَّى «أم غنم» وكانت كافرة شديدة العداوة لنبي الله صالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحدَ رؤساء ثمود.

وكان معها امرأة أخرى يقال لها: «صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا» ذات حسب ومال وجمال، وكانت زوجة رجل مسلم من ثمود، ففارقته.

اجتمعت المرأتان، واتفقتا على دعم أولئك الذين يريدون قتل الناقة.

دعت «صدوف» رجلاً اسمه «الحباب، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له "مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ما طلبت.

أما العجوز «عنيزة» فقد دعت رجلاً اسمه «قدار بن سالف بن جندع» وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زِنْيَة، أي أنه من الزِّنا، وليس من أبيه الذي ينسب إليه.

وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، هنا اشتعل الشر في قلبي الرجلين «مصدع، وقدار».

وهنا بدأت المأساة.

انطلق المكابر الكبير قدار بن سالف يرافقه صاحبه إلى بعض غواة قوم ثمود، يستفزونهم للمشاركة في هذه الجريمة فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ [النمل: 48].

وكانوا رؤوساً في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة، فطاوعتهم على ما عزموا عليه.

هنا انطلقوا فرحين، يسبقهم قائدهم المكابر "قدار" الذي وصل إلى المكان المحدَّد قبلهم وفي نفسه أن يفوز بهذا العمل الخطير، حيث كمن للناقة في أصل صخرة على طريقها وكمن لها «مصدع» في مكان آخر، فمرَّت الناقة أوَّل ما مرَّت على «مصدع» فرماها بسهم فانتظم به

عضلة ساقها، وكانت العجوز «عنيزة» تراقب الحدث، فأمرت أجمل بناتها أن تكشف وجهها ورأسها أمام «قدار» الذي وعدته بتزويجه إحدى بناتها.

كان قدار جاهزاً نفساً وعقلاً لقتل الناقة، فانطلق إليها بسيفه فشدَّ عليها فكشف عرقوبها (أي: قطعه) فخرَّت ساقطة على الأرض، ورغت رغاةً واحدة تحذِّر بها فصيلها الذي كان يسير وراءها، وكان «قدار» يريد قتله مع أمه.

لقد أجهز على الناقة وطعنها في لبَّتِها فنحرها.

أمَّا فصيلها فقد ولَّى هارباً وهم يركضون وراءه، فصعد جبلاً منيعاً ودخل في صخرة فغاب فيها.

كان قدار بن سالف يشعر بإنجازه الكبير، لم يكن يستطيع أن يرى بعين بصيرته خطورة ما فعل، وأنَّى لعين بصيرته أن ترى وهو المكابر العنيد.

لمَّا فرغوا من قتل الناقة، بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال:

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65].

لماذا بكى صالح، وقدار وجماعته يضحكون؟

لأنه يرى الحق حقاً، ويرى الباطل باطلاً، ويعلم النهاية السيئة التي سينتهي إليها قوم ثمود كلهم.

أما قدار وجماعته، فهم في غمرة هواهم، وفي خندق مكابرتهم لايرون وجه الحق، ولا يسمعون صوته.

هل وقف المكابرون عند هذا الحدِّ؟

كلاَّ...

فقد اتفقوا على قتل صالح عليه السلام، يقدمهم الذي عقر الناقة وقالوا: إن كان صالح صادقاً فيما أنذرنا به من العذاب عجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته.

حينما خيَّم الليل، ونشر ظلماءه في كل مكان، وحال بين الأعين وبين ما تراه، انطلق قدار ومعه جماعته إلى بيت صالح ليقتلوه، ولكنَّهم كانوا في غفلة مكابرتهم ناسين أنه نبيُّ الله عليه السلام، وأنَّ الله مطلع على ما عزموا عليه.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: 50].

كانوا منطلقين إلى بيت صالح، ولكنَّ قدرة الله سبحانه وتعالى أسرع منهم، فقد أرسل عليهم حجارة فرضختهم وأماتتهم في مكانهم، فكانوا سابقين لقومهم في الهلاك.

هكذا غلَّفت المكابرة قلوبهم، وغلَّفت بصائرهم حتى وصلوا إلى هذه النهاية.

أين قدار بن سالف؟ وأين تلك العجوز الكافرة «عنيزة»؟

وأين ابنتها الجميلة؟ لقد تلاشوا وضاعوا في زحام المكابرة والضلال.

أرأيتم كيف تصنع المكابرة بالإنسان والعياذ بالله؟

1- حينما خرجت الناقة من الصخرة حالت المكابرة بين الكافرين وبين الخضوع لرب العالمين.

2- وحينما بثَّ صالح عليه السلام دعوته الصادقة حجزت المكابرة بين قدار بن سالف وجماعته وبين رؤية أضواء تلك الدعوةِ إلى دين الله.

3- وحينما ارتكب الرجل جريمة نحر الناقة رأى بكاء النبي صالح عليه السلام، فما زاده ذلك إلا عناداً، ولولا المكابرة البغيضة، لاعتذر وتاب، ولربما تاب الله عليه وأنقذ قومه ونفسه من الهلاك.

4- وحينما عزم مع جماعته على قتل نبيِّ الله صالح لم يكن ليتذكر معجزة خروج الناقة من الصخرة، فهي كافية للدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، ولولا المكابرة لأدرك ومن معه أنَّ الله سبحانه وتعالى سيحمي نبيَّه منهم.

انتهى كل شيء، ذهبت البيوت الفارهة، والنساء الجميلات والمكانة والشرف الدنيوي.

نسفت المكابرة كل شيء.

كان نصيب «قدار بن سالف» حجراً صلداً رضخ الله به رأسه فمات، مات كأن لم يكن موجوداً.

وكان ورهطه سبباً في هلاك قومهم أجمعين، إلا من كان مع صالح من المؤمنين.

ثلاثة أيام رأوا فيها عجائب قدرة الله سبحانه وتعالى.

اليوم الأول بعد قتل الناقة هو يوم الخميس، أصبح القوم فيه ووجوههم مصفرَّة ويوم الجمعة أصبحوا ووجوههم محمرَّة، ويوم السبت أصبحوا ووجوههم مسودَّة، وفي صبيحة يوم الأحد جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78].

لم ينج منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى.

قال ابن كثير في تفسيره:

قالوا: إنَّ جارية من قوم ثمود كانت مقعدة، يقال لها: "الذريعة" وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت هلاك القوم انطلقت رجلاها ، فقامت تسعى حتى وصلت إلى حيٍّ من الأحياء القريبة فأخبرتهم بما رأت وما نزل بقومها ثم استسقتهم من الماء.

فلما شربت «ماتت».

حتى أبو رغال رجل من ثمود لحق بقومه، فقد كان في الحرم حينما نزل بقومه مانزل فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصابهم!.

يالها من نهاية مؤلمة.

عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

«ألا أحدثك بأشقى الناس»؟

قال: بلى.

قال: **رجلان...**

أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة.

والذي يضربك يا عليُّ على هذا ـ يعني قرنه ـ حتى تبتلَّ منه هذه ـ يعني لحيته ـ.

وتؤكد الروايات أن الشقيَّ الثاني ـ عبد الرحمن بن ملجم ـ الذي قتل علياً رضي الله عنه قد ضرب علياً على قرنه في الموضع الذي أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

اللهم إنَّا نسألك السلامة من هذا الشقاء، ونرجو رحمتك، ونطمع في مغفرتك.

هكذا كانت نهاية «الأحمر الأزرق القصير»

«أحيمر ثمود»

«قدار بن سالف»

قال تعالى: ﴿**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾**﴾ [الشمس: 12- 15].

المكابر الخامس
«لئن لم تنته لأرجمنَّك»

رجل تظهر عليه صفات الصدق والإخلاص، وينطق وجهه بالسماحة والحلم وحسن الخلق.

رجل مؤمن بالله عز وجلَّ، رأى علامات الحق ظاهرةً في كل ما يدور حوله في هذا الكون الفسيح.

رجل أطلعه الله على بعض أسرار هذه الحياة. وأراه ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين.

كل الكتب التي تتحدث عنه تؤكد أنه رجل كريم ذو صفات خاصة ترفع بين الناس مقامه، وتحبِّب إلى من يستمعون إليه كلامه، ويمنحه كلٌّ من رأى وجهه المشرق تقديره واحترامه.

حينما ينظر إليه ذو القلب السليم، وذو النفس المشرقة، وذو الحسِّ الصادق، يميل إليه قلبه، ولا يملك إلا أن يحبَّه، وأن يصدِّق حديثه، وأن يجعله قدوة صالحة يقتدى بها.

إنها صفات ممتازة يتوق إليها كل إنسان سويٍّ في هذه الحياة.

رجل بعثه الله برسالته، وأوحى إليه ما أوحى من أمور الدين الإسلامي الذي تصلح به حياة الناس وآخرتهم، اختاره الله لرسالته، وكان صدِّيقاً نبيًّا، صادقاً مخلصاً.

جـرت له مع النـاس مـواقف ومـواقف، واعـتـرض حـيـاته مـا اعترضها من الأحداث الجسام، والمشكلات العظام، ولكنه من أولي العزم من الرسل.

ما رأيكم في رجل هذه صفاته؟

ألا يستحق التقدير؟ أليس جديراً بالتصديق؟

أليس مؤهلاً لقيادة الناس إلى النجاة؟

ماذا سيفعل أحدنا لو لقي رجلاً بهذه الصفات؟

كأني بنا جميعاً نقول: نصدِّقه، ونتبعه، ونحبُّه ونقدِّره.

ماذا لو كان أحدنا أباً لهذا الرجل؟

كأني بكم تقولون:

للأب أن يرفع رأسه بين الناس حينما يكون له ولد بهذه الصفات، له أن يفخر، وله أن يقدِّر وله أن يعيش حياته سعيداً راضياً مستبشراً لأنه أب لرجل عظيم.

صدقتم، هذا هو الحق.

ولكن هذا الرجل الذي ذكرنا من فضله ما ذكرنا عانى أشد المعاناة وأقساها من جحود أبيه وعناده ومكابرته وعدائه.

كان أبوه عدوَّه الأوَّل الذي وقف في وجهه بقسوة وكذَّب ما جاء به بمكابرة آذت نفس هذا الرجل الكريم، وملأت قلبه حسرة وألما.

لقد سجَّل القرآن الكريم لنا موقف هذا الأب الذي كابر وعاند في أكثر من سورة.

إن ذلك الرجل الكريم هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم الذي حاول بكل ما أوتي من حبّ لأبيه، وصدق في عاطفته، وإخلاص في دعوته، أن يسعد أباه بانتمائه إلى الإسلام، ولكنَّه لم يفلح فوقف حزيناً يتأمَّل حالة هذا الأب المكابر الذي قال لابنه البارّ الصادق الكريم: «كلا».

أه من «كلا» هذه التي تنطلق سهماً قاتلاً إلى قلب خليل الله إبراهيم عليه السلام.

ما اسم أي إبراهيم؟

قيل هو: «آزر» كما ورد في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74].

فهل اسمه آزر؟

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنَّ أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، إنما كان اسمه تارح، وقال في قوله تعالى: ـ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ـ يعني بآزر الصنم، أما أبو إبراهيم فاسمه تارح، وامُّه اسمها مثاني، وامرأته اسمها «سارَّة» وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم عليه السلام.

وقال بعض المفسرين، إنَّ آزر اسم صنم وليس اسماً لأبي إبراهيم، وإنما ذكره لأنه قد غلب عليه لأنه كان يخدمه.

وقيل: إن معنى آزر هو: معوجّ، قاله إبراهيم وصفاً لحالة أبيه.

وأنا أميل إلى ما قاله صاحب كتاب قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار، من أنَّ إبراهيم كان أحلم، وأرفع من أن يقول لأبيه كلمة نابية، فهو يحاول أن يدخله في الإسلام، وحينما أبى وعاند استغفر له وهو على كفره.

وإن كان ابن جرير الطبري يرجِّح أن يكون آزر اسماً ثانياً لأبي إبراهيم، أو يكون أحدهما لقباً له.

ولن نسترسل في هذا الطريق، لأن المهمَّ في الأمر هو الحديث عن مكابرة «تارح» وعناده لولده إبراهيم.

لقد كان الحقُّ واضحاً أمام الرجل، وهو أعرف الناس بابنه وأقرب الناس إليه، ولكنَّ المكابرة حجزت بينه وبين رؤية الحق والإيمان به.

وإني لأعرف فيمن عرفت رجلاً ذا صلاح وعلم ودعوة مقبولة عند الناس، كان يعاني من جحود أبيه ومحاربته له ما لم يكن ليخطر لي على بال لولا أنني رأيته.

وكنت أرى من حسرة الابن الداعية، وحزنه الشديد ما يجعلني شديد الإشفاق عليه.

وإن هذه الصورة الواقعية لتقرِّب لي صورة أبي إبراهيم عليه السلام الذي أنكر دعوته ولم يؤمن به، وتشعرني بشدة الألم الذي كان يملأ قلب خليل الله عليه السلام.

إن مما ضاعف المأساة في هذه الحالة هو أنَّ والد إبراهيم كان عابداً للأصنام، متخذاً لها آلهة من دون الله، أي أنه «كافر» مكابر، وهذه الصورة شديدة الإيلام لنفس الإبن البارِّ الحريص على نجاة أبيه.

إنه الضَّلال المبين الذي كان عليه أبو إبراهيم وقومه، وهو ضلال سابق لدعوة إبراهيم، فلما جاء إبراهيم عليه السلام بما جاء به، استمرَّ ضلال أهل الضلال.

وهنا ـ في هذه الحالة ـ تبرز المكابرة التي تجمِّد الأحاسيس، إنَّ إبراهيم عليه السلام قد أصبح صدِّيقاً نبيًّا، وصار لديه من العلم والمعرفة التي منَّ الله بها عليه ما يجعله قادراً على أن يقدِّم الدواء لداء الجهل والضلال.

كان أبوه هدفاً أوَّل له، لأنه أقربُ الناس إلى قلبه، ولأن حقَّه على ابنه أكبر وآكد، ولأن الأقربين أولى بالمعروف.

ولربما كان الأمل كبيراً في نفس إبراهيم الخليل عليه السلام قبل أن يصدمه أبوه بمكابرته وعناده، ولهذا وجَّه إليه خطاباً مباشراً مشحوناً بالمودَّة والحرص على الهداية، مقدَّماً بصيغة الاستفهام المشوب بالعتاب والأمل:

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 42-45].

إن في تكرار هذا النداء الشجيِّ المغموس في نبع العاطفة الجيَّاشة «يا أبت» ما يؤكد لنا عمق المشاعر التي كان ينطلق منها إبراهيم عليه السلام في خطاب أبيه.

«يا أبت» مفتاح رائع من مفاتيح العاطفة الأبويَّة التي تستقر في قلب «تارح» أبي إبراهيم، ولكنَّ المشكلة تكمن في «المكابرة» التي لا تسمح لهذا المفتاح ولا لغيره من المفاتيح أن يقوم بدوره في فتح الأبواب المغلقة.

إنها النبوة في أسمى مراتبها، وإنَّه البرُّ بالأب في أجمل صوره، وإنه الإحساس بالمسؤولية في أعلى درجاته.

● ***تساؤل شجيٌّ حزين:***

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢] إنه لشيء محزن أن يقع الإنسان العاقل في هذا المستنقع الآسنِ من الكفر بالله العلي القدير، وعبادة جمادات لا تعي شيئاً.

تساؤل قادر على هزِّ القلب من داخله، لو سلم من حاجز المكابرة الغليظ.

● **خبرٌ مؤكد صحيح تبنى عليه نتيجة مهمة:**

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43].

النبوة حقيقة، والرسالة واقع ثابت، وفي النبوة والرسالة من العلم ما لايملكه إلا النبيُّ المرسل، ومادام الأمر كذلك فإن الهداية إلى الصراط السويِّ هي النتيجة.

يالضياع المكابر ويالسوء خاتمته.

● **نهيٌ عن شر متحقق يهلك الإنسان:**

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44].

الشيطان هو الذي يقود المكابرين والمعاندين، وهو الذي يخرّجهم في مدرسة الذنوب الشيطانية التي افتتحها منذ أبى واستكبر فلم يطع أمر ربِّه، ولم يسجد لآدم عليه السلام ولذلك فإن من يعبد غير الله إنما يطيع الشيطان، فهو يعبد الشيطان الرجيم.

مدرسة خبيثة ممتدَّة عبر أزمان طويلة.

ولكن القلب المكابر لا يفقه.

● **خوف من النهاية المؤسفة:**

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: 45].

إن الأب المكابر قد أصبح مغلق التفكير في هذه الحالة، فلا فائدة من النداء يا أبا الأنبياء.

بعد كلِّ هذه النداءات المضيئة بالحب والصدقِ.

كان الجواب صدمةً للابن الحريص على نجاة أبيه:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46].

كأنه لم يسمع من ابنه كلمةً واحدة، بل هو لم يسمع ـ فعلاً ـ وأنَّى له أن يسمع وفي أذنيه وقر، وفي قلبه حجاب كثيف من مكابرة ومعاندة..؟

لقد حاول إبراهيم عليه السلام أن يحاصر أباه من كل نواحيه، من القلب والعقل والنفس، فعاتبه، وأخبره ونهاه وعبر له عن شعوره الصادق نحوه حينما أعلن له أنه يخاف عليه من عذاب أليم.

كل ذلك أصبح هباءً أمام المكابرة التي أمسكت بتلابيب «تارح» عقلاً وقلباً ونفساً.

مع كل هذا العناد، وبعد كل هذه المكابرة، وقف إبراهيم عليه السلام شامخاً بصبره، ورفقه وعطفه وشفقته وحبِّه للخير.

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: 47-48].

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: 47].

ماأجملها من كلمة تدل على قلب رحيم.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: 47].

ما أعظمها من جملة تعبر عن كرم الطبع وسلامة الصدر والحرص على الخير.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: 48].

ياله من بيان واضح يدل على البراءة من الكفر وأهله مهما كانت أوصر القربى.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: 47].

لولا المكابرة والعناد لكان لهذه الكلمة بعد ذلك الحوار الطويل أثرها الكبير في نفس «تارح» ولأحدنا أن يتخيل نفسه في ذلك الموقف، يدور حوار شديد بينه وبين آخر، ثم يسمع من الآخر كلمة «سلام عليك».

ماذا سيصنع؟

لاشك أنَّه سيلين، ويقدِّر صاحبه أعظم تقدير.

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: 46].

هذه الكلمة التي قالها أبو إبراهيم عليه السلام له بعد الحوار الذي دار بينهما تؤكد مدى المكابرة عنده التي جعلته يقول لفلذة كبده هذه الكلمة الجامدة.

هل يعني بذلك الرجم بالحجارة؟

أم الرجم بالكلمات سبَّاً وشتماً؟

لا فرق بينهما في ميزان الحكم على موقف الرجل، فالمهم هنا أنها كلمة نابية تدل على شخصية مكابرة.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ [مريم: 47].

أي سأسأل الله تعالى أن يهديك، ويغفر ذنبك، فلن أتوقف عن الاستغفار لك لعل ذلك ينجيك من العذاب.

وروى المفسرون أن إبراهيم ظلَّ يستغفر لأبيه المكابر مدَّة طويلة.

حتى بعد أن هاجر إلى الشام.

وبعد أن بنى المسجد الحرام.

وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

وقد بقيت هذه سنَّة اتبعها المسلمون في بدايات الإسلام حية استغفروا لقراباتهم وأهلهم من المشركين، وذلك اقتداءً بإبراهيم عليه السلام، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: 4].

يوضح ابن كثير في تفسيره معنى هذه الآية قائلاً: إن الله سبحانه وتعالى وجَّه المسلمين إلى الاقتداء بإبراهيم في براءته من الكفر وأهله. واستثنى من ذلك استغفاره لأبيه في قوله: إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك: أي لا تتأسوا وتقتدوا به في هذا.

بيَّن تعالى أنَّ إبراهيم أقلع عن استغفاره لأبيه في قوله:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113-114].

وفي هذا دليل قاطع على سموِّ روح إبراهيم عليه السلام، وارتفاعه إلى درجات العطف والرحمة والمودّة العاليات، حيث ظلَّ يستغفر لأبيه، حتى نهاه الله عن ذلك فانتهى.

أما «تارح» فقد كابر وعاند حتى أحرق جميع أوراق نجاته في الدنيا والآخرة، وأغلق بمكابرته على ابنه المحبِّ لأبيه المشفق عليه كلَّ أبواب الأمل في نجاة والده.

روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال:

«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم»:

ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه:

فاليوم لا أعصيك

فيقول إبراهيم:

يا رب، إنك وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله:

إني حرَّمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال:

يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟

فينظر فإذا هو بذبح متلطِّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

قال ابن كثير بعد رواية هذه الحديث:

وقد رواه البخاري في قصة إبراهيم منفرداً.

صورة أخرى من صور المكابرين القاتمة ظهر أمامنا صاحبها في أسوأ حال، بعد أن أضاع كلَّ الفرص التي كانت متاحةً أمامه للنجاة.

اللهم إنا نعوذ بك من خاتمة السوء

يا رب العالمين

المكابر السَّادس
«أنا أحيي وأميت»

مرَّت بإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف متعدَّدة، ظهرت فيها حكمته وصبره، ورؤيته الواضحة، كما تجلَّت فيها معاناته مع المكابرين الذين يحاربون الحقَّ، ويصدُّون أصحابه، ويقفون في وجه الخير والإصلاح.

ولقد كان أشد المواقف ألماً في نفسه موقف أبيه منه كما مرَّ بنا في الصفحات السابقة، لأنه مرتبط بمشاعر الأبوَّة والبنوة، والعواطف الجيَّاشة عند الابن نحو أبيه.

ومن المواقف العصيبة التي مرَّت بإبراهيم عليه السلام، ذلك الموقف مع المكابر الكبير الملك «نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح»، وهو ملك ذو نفوذ واسع لقد ملك الدنيا بأسرها، فكان سلطانه ممتداً إلى كلِّ من كان على وجه الأرض من البشر، وهو أحد الكافرَيْنِ اللَّذين ملكا الدنيا بأسرها: «نمروذ، وبختنصّر».

أما المؤمنان اللذان ملكاها أيضاً، فهما: «سليمان بن داوود عليهما السلام، وذو القرنين ـ رحمه الله ـ».

ولكن شتَّان بين الجانبين، من حيث إشاعة الخير، والحق والعدل بين الناس.

لقد أعلن «نمروذ» إنكاره الصارخ أن يكون هناك إله غيره وبلغ من التجبر والتسلُّط مبلغاً كبيراً، وصارت القوة المادية التي يملكها شؤماً عليه، لأنها ألقت به في خندق الجحود، ولعل مما زاد من تجبُّره طول مدة ملكه فظنَّ أنه الإله الذي لا يفنى، حيث تذكر بعض الروايات أنه مكث أربعمائة سنة في ملكه الكبير العريض.

تطاول النمروذ وادَّعى أنه مقتدر على كلِّ شيء، وكان له من ملكه وخدمه وحشمه، وجيشه العملاق ما يدفعه إلى ذلك التمرُّد وهذا الجبروت.

المكابرة والاغترار، هي، هي، كما رأيناها عند إبليس الذي غوى، نراها عند «نمروذ» الذي أعماه الهوى.

كيف التقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهذا الملك المتغطرس المتعالي «نمروذ»؟

أشار ابن كثير في تفسيره نقلاً عن السُّدّي: أنَّ المناظرة التي جرت بين إبراهيم والنمروذ كانت بعد خروج إبراهيم من النار التي أرادوا إحراقه فيها فجعلها الله برداً وسلاماً على إبراهيم، ولم يكن قد اجتمع بهذا الملك قبل هذه الحادثة، ويبدو أن المعجزة الإلهية التي أدهشت الجميع حين شاهدوا النار الملتهبة تصبح برداً وسلاماً على أبي الأنبياء عليه السلام.

يبدو أن هذه المعجزة قد دفعت الملك إلى طلب اللقاء بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما التقى به..

«كانت المناظرة بينهما».

وفيها أقيمت الحجة على «نمروذ» فلما كابر أهلكه الله كما سنعرف بعد قليل.

وهنالك رواية أخرى عن زيد بن أسلم تقول:

إنَّ النمروذ كان عنده طعام يحضره عامة الناس، وكان الناس يفدون إليه طلباً للميرة، ورغبة في التزود لأهلهم، فوفد إبراهيم في جملة من وفد من الناس طلباً للميرة، فلما التقى بالملك حدثت بينهما المناظرة، فغضب الملك، ومنع أن يعطى إبراهيم ـ عليه السلام ـ طعاماً كما أعطي الناس.

فرجع ـ عليه السلام ـ وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله كره أن يعود إليهم خالي الوفاض من الطعام..!

فماذا فعل هنا؟؟

اتّجه إلى كثيب من الرَّمل فملأ منه عدليه، ليشغل بهما أهله أوَّل ما يراهم، فلما وصل إلى أهله، وضع رحاله، وجاء إلى مكان من البيت فاتّكأ ونام.

لقد كان متعباً من السفر، وحزيناً لعدم وجود طعام معه مع حاجة أهله إليه، ولربما كان يشعر بالخجل من أهله الذين سيفاجئهم وجود الرمل بدل الطعام ، فقامت امرأته ـ سارة ـ إلى العِدْلين اللذين ملأهما رملاً، فكشفت عنهما فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، وميرةً حسنة. فعملت منه طعاماً، وانتظرت زوجها إبراهيم حتى يقوم من النوم لتقدِّم له الطعام.

فلما استيقظ من نومه وجد الطعام الذي جهَّزته له زوجته سارَّة فقال لها:

أنَّى لكم هذا؟

قالت: أنت الذي جئت به.

هنا، صمت إبراهيم، ووجَّه شكره إلى ربه عز وجل، وقد أيقن أنه رزقٌ رزقهموه الله عز وجل، وأن الله قد كافأ إبراهيم عليه السلام على موقفه من الملك المكابر بأن منحه من الطعام ـ بقدرته ـ أفضل مما عاد به الآخرون من طعام الملك.

ونحن لا نتوقف عند الطريقة التي لقي بها ابراهيم النمرود طويلاً، لأن اللقاء قد حدث ـ بلا شك ـ وجرى فيه حوار واضح ـ بلا شك ـ وقد أكَّد لنا القرآن الكريم ذلك في سورة البقرة.

كيف كانت المناظرة؟

هنا نبي مرسل من الله عز وجل، يعرف ربَّه، ويعلم أنَّ كل ما في الوجود من خلقه وتحت أمره ـ سبحانه وتعالى ـ وهنالك ملك مكابر متجبِّر أعماه غروره، وأطغاه سلطانه فهو يرى خلاف ما يراه إبراهيم.

إنهما رؤيتان متصادمتان متناقضتان.

وما دام الأمر كذلك، فلا بد أن تكون الحجج التي يطرحها إبراهيم عليه السلام قويةً واضحة لعلَّها تمزِّق حجاب المكابرة الذي أعمى النمرود.

تشير الروايات في إطار مدلول الآيات القرآنية إلى أن "نمرود" سأل إبراهيم عليه السلام عن ربه، وطلب منه دليلاً على وجود الرّبِّ الذي يدعو إليه.

كان الدليل الأوضح الأقرب إلى الذهن هو دليل الإحياء والإماتة الذي يحسم القضية، ويؤكد حقيقة الرب سبحانه وتعالى التي نسيها أو تناساها الملك ا لمكابر.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة الموت بصفتها دليلاً قاطعاً على عجز البشر وضعفهم أمام خالق الخلق، ومالك الملك، مقِّدر الحياة والموت.

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: 83-87].

قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

جواب واضح، يفهمه العاقل الذي لا تحجب عقله حجب المكابرة، والغرور، وهوى النفس.

أما جواب الواهم فهو الجواب المضحك الذي يدلُّ على أدنى دركات التفكير المغلق التي وصل إليها.

قال النمروذ: «أنا أحيي وأميت».

هنا يحق لكل عاقل أن يضحك ضحكاً كالبكاء.

كيف تفعل ذلك أيها الملك الأعجوبة؟

تقول الروايات:

إنه أمر بإحضار رجلين قد صدر عليهما الحكم بالقتل، فقال: عفوت عن هذا، وأمرت بقتل هذا. فأنا أحييت أحدهما وأمتُّ الآخَرَ..

أرأيتم، كيف يكون المنطق الأعوج عند المكابر؟

وكيف يصبح مثاراً لسخرية العقلاء مع أنه يظن أنه قد جاء بما لم يأت به غيره من البشر.

ربما كانت ابتسامات المنافقين حوله من عوامل زيادة مكابرته ووهمه، وربما أنه بفعله هذا أمامَ إبراهيم ظن أنه قد أفحمه وأسكته.

لقد شعر إبراهيم أنه أمام مكابر ضيِّق الأفق، ولو لم يكن كذلك لما قابل تلك الحقيقة الكبرى «الموت» بهذه الفجاجة التي تكشف شخصية جوفاء.

هنا لا بد من إيقافه عند حدِّه بدليل آخر لا يمكن دفعه بمثل هذا التلفيق الذي صنعه الملك نمروذ في مواجهة الدليل الأول:

قال إبراهيم في مواجهة هذه المكابرة: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ [البقرة: 258].

هيا يا نمروذ وجِّه إشارة من يدك الضعيفة إلى الشمس لتفعل ذلك، أو أرسل فرقة من جيشك لتأخذ بخيط من خيوط شعاع الشمس وتجرها إلى المغرب لتشرق من هناك، ألست تدعي أنك تملك الإحياء. والإماتة؟ وأنك تتصرف في الوجود؟.

إذن، مادمت كذلك فلن يعجزك أن تفعل بالشمس ما طلب منك نبيُّ الله إبراهيم.

هنا لم تر عيون الحاضرين في ذلك المجلس إلا رأس هذا المكابر المنكَّس، ووجهه الواجم، والبهتة التي جعلته عاجزاً عن الكلام.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

لقد قامت الحجة الدامغة التي لا تتيح له أن يخادع أبداً .

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ماذا جرى بعد هذا؟

المكابرة لا تترك صاحبها حتى تهلكه، لم يصدق ولم يؤمن بالحق، بل أمر بإخراج إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمر بألا يحمل من الطعام شيئاً.

يالها من نفوس تهبط بها مكابرتها إلى هذا الحضيض!.

ومن يدري؟ ربما كان نمروذ يريد أن يأمر بقتل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكنَّ حادثة النار التي صارت برداً وسلاماً على إبراهيم جعلته على يقين من عدم قدرته على تنفيذ مثل هذا الأمر.

المكابرة حاجز خطير، أوصلت هذا الملك إلى أسوأ النهايات.

كيف ذلك؟

يروي ابن كثير في تفسيره عن زيد بن أسلم قوله:

بعث الله سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك ـ إلى الملك نمرود ملكاً من الملائكة يأمره بالإيمان بالله.

فأبى أشدَّ الإباء.

ثم جاءه الملك مرةً ثانية يدعوه إلى الإيمان بالله فأبى أشدَّ الإباء.

ثم جاءه مرة ثالثة فدعاه فأبى أشدَّ الإباء.

فماذا كان الجزاء؟

قال له ذلك الملك من الملائكة: «اجمع جموعك، وأجمع جموعي».

وهنا يظهر مدى الارتكاس في ذهن وعقل النمروذ. لو كان واعياً رشيداً لعلم أن معنى هذا الكلام هو هلاكُهُ بلا شك.

ولكنَّه ذهب يعد جيشه للمعركة، أيُّ معركة يا ترى؟

معركة الغفلة التي ستريه نهايته المؤسفة.

جمع جيشه وجنوده وقت طلوع الفجر.

أين الجيش المقابل؟

أرسل الله عليهم أرتالاً من البعوض سدَّت عليهم الأفق فلم يروْا عين الشمس.

هيَّا يا نمروذ، سلُّوا سيوفكم، وأشرعوا رماحكم. حتى تهزموا جيش البعوض.

إنَّ إرسال الله سبحانه وتعالى لهذا الجيش الضعيف المحتقر مناسب لمكابرة ذلك الملك المكابر.

تقول الرواية:

أكلت البعوض لحومهم، ومصَّت دماءهم وتركتهم عظاماً بادية، هياكل عظمية مخيفة.

أين الملك المغرور المكابر الذي ادَّعى أنه قادر على الإحياء والإماتة؟

تقول الرواية:

دخلت واحدة من تلك الآلاف المؤلفة من البعوض، في منخري الملك، نعم، بعوضة واحدة في فتحه أنفه لأنه كان يشمخ به على ربه ظلماً وعدواناً، ولأن الأنف من أشرف ما يملكه الإنسان من الأعضاء لأنه في مقدمة وجهه.

بعوضة واحدة ظلَّت في أنفه زمناً، زيادة في التعذيب والإهانة له، حتى كان يضرب رأسه بالمرازب طيلة بقائها في أنفه، لأنها لم تمت، بل كانت تتحرك داخل أنفه فتصيبه بالجنون.

وماذا بعد؟

هلك النمروذ المكابر، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى بخبره للعظة والاعتبار.

بعوضة واحدة تقتل الذي قال: «أنا أحيي وأميت».

اللهم اشرح صدورنا للحق حتى لا يخدعنا الباطل آمين.

المكابر السَّابع
«أنا ربكم الأعلى»

لعلَّنا لو أردنا تصنيف خريجي المدرسة الشيطانية حسب اجتهادهم، وتحصيلهم، وتفوُّقهم في المكابرة والجحود، لوجدنا هذا المكابر هو المتفوِّق الأوَّل فيها وهو الجدير بتاج النجاح الأكبر الذي يخصصه إبليس اللَّعين لأتباعه وتلاميذه ومريديه.

مكابر أظهر بدون وجل جحده للخالق الرازق تبارك وتعالى، وأنكر وجود إلهٍ غيره «ما علمت لكم من إله غيري» وشطح في مكابرته حتى قال:

«أنا ربكم الأعلى» وقال متجرِّداً من الحكمة والعقل:

«وما رب العالمين؟»، وحينما واجهه النبي المرسل عليه السلام بالحجة بعد الحجة، والدليل بعد الدليل قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، وقال حين عجز عن الردِّ، وَجُوبِهَ بالحق المسكت له ولأمثاله: «لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين».

أرأيتم كيف يصبح المكابر كالحجر الأصمِّ الأبكم لا يفهم معاني الكلام الصحيح الصريح، ولا يستوعب دلالات الحجج الدامغات.

أبواب مسدودة أمام كلمة الحق، أقفلت بقفل المكابرة الذي لا مفتاح له إلاّ الرجوع إلى الحق، وأين هذا المفتاح من أهل المكابرة والغرور والكفر والضلال.

إنه المكابر الأضخم في باب المكابرة: «فرعون» الذي غرَّه ملكه وقوَّته، وخضوع الناس له وطول مدَّة ملكه، وتلاعب بعقله وقلبه أستاذه الأكبر في الضلال «الشيطان الرجيم»، فرمى به في حجج المكابرة والتكذيب، وأغرقه في أوحال الكفر والعصيان، ونفخه بالغرور القاتل حتى قال الكلمة التي يتحقق بها حلم إبليس الأعظم «أنا ربكم الأعلى».

لكأنني بمؤسس مدرسة المكابرة والجحود، ومنشئ مركز التمرد والعصيان «إبليس لعنه الله» يتعالى إحساساً بالانتصار على هذا الملك المغرور بضعفه، الضعيف بغروره، فرعون الذي قال: «أنا ربكم الأعلى»، يا لها من كلمة، ما أظنُّ إبليس إلا قد أقام من أجلها مهرجاناً شيطانياً ضخماً حضرهُ ملايين الشياطين الذين يكيدون لبني آدم ليل نهار.

لقد رأى فرعون دلائل وعجائب كانت جديرة بإعادته إلى الصواب لو أنه سلم من داء المكابرة والاغترار.

إن مجيء ذلك التابوت على سطح البحر تسوقه الأمواج وفي داخله ذلك الطفل الرَّضيع، يعد رسالة واضحة، فيها إعجاز واضح لو كان عقل فرعون سليماً من مكابرته وغروره وعناده.

وإنَّ نشأة ذلك الرضيع «موسى بن عمران» عليه السلام في بيت عدوه وعدو قومه، وفي العام الذي أمر فيه فرعون بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، لدليل على أن هنالك أسراراً إلهيَّة لا يعلمها إلا الخالق القادر الذي كفر به فرعون، وجحده، وادَّعى أنه هو الربُّ دونه.

ثم ما جرى من تسلسل الأحداث التي برزت فيها شخصية موسى وقوة بدنه، وقتله دون قصد لرجل من قوم فرعون حينما وكزه بإصبعه فمات دفاعاً عن الاسرائيلي ثم هروبه إلى مدين، ثم عودته رسولاً إلى فرعون بعد ذلك لسنوات إن ذلك كلَّه لرسائل بيان وبلاغ لو كان فرعون يعقل ويعي.

ولو كانت مرسلات الوعي في عقله سليمة من العطب الذي حال بينها وبين سلامة الإرسال والاستقبال.

إنَّ فرعون كان متعالياً مكابراً، وكان يرى أنه فوق البشر لأن ملكه عريض، ولأن الأنهار تجري من تحته، وكان عنيفاً مع معارضيه، متكبراً على رجاله وحاشيته يقال: إنه كان إذا غضب على أحد صلبه في جذع النخلة حتى يموت، ويقال:إنه كان يجعل لمن يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذِّبه أشدَّ العذاب.

ما اسم فرعون يا ترى؟

قيل هو الوليد بن مصعب، وقيل: قابوس بن مصعب، وقد حكم مصر كما تقول الروايات على مدى سبعة وستين عاماً من 1279- 1213 قبل الميلاد.

سبعة وستون عاماً من الملك والتسلط جعلت هذا المكابر يعيش في سكرة المال والجاه والقوة وهوى النفس ونزغات الشيطان.

سكرات قاتلات ظلَّت تحيط بعقله وقلبه، وتسيطر على روحه ونفسه حتى أهلكته وأغرقته.

لقد ابتلى الله سبحانه وتعالى فرعون بالسنين العجاف، وبنقص الثمرات، ثم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، إنها آيات مفصَّلات واضحات أظهرت عجز هذا المدعي للربوبية عن كشفها، ومع ذلك استمر في مكابرته واستمر أتباعه في تصديقه والخضوع له.

ولنا أن نتوقف قليلاً أمام هذه الآيات، ونوازن بينها وبين قدرات فرعون البشرية، وقدرات جيوشه وحشمه وخدمه ثم ننظرَ إلى ادعائه الربوبية، وإصراره على ذلك، وانسياق الآلاف من قومه الذي استخفَّهم فاتبعوه اتباع الذين لا يفكرون ولا يبصرون، إننا عند ذلك سندرك مدى الغفلة القاتلة التي جثمت على صدور هؤلاء القوم الذين لا يفقهون حديثاً.

زوج ماشطة بنت فرعون أدرك الحقيقة، وتأمل الموقف وعرف حقيقة الادعاء الكاذب في قول فرعون: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ و ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾.

بعد أن جاءت آيات الله البينات، ومعجزاتُهُ الواضحات.

أدرك زوج الماشطة حقيقة الضعف البشري الهائل أمام قوة الله وقدرته، فآمن بربه العظيم، وكفر بفرعون الحقير، وأمنت بالله زوجته ماشطة بنت فرعون، وكتما إيمانهما، ولكنَّ النور لا ينكتم، وضوءه

الساطع لا يخفى فبلغ فرعون إيمان الرجل، وتأكد من ذلك فأمر به فقتل بعنف وقسوة شهيداً ـ إن شاء الله ـ، وخلَّف زوجته المؤمنة تكتم إيمانها وخمسة أطفال صغاراً.

ماشطة بنت فرعون حرصت على الاستمرار في عملها، وكتم إيمانها بالله حرصاً على جلب القوت لأطفالها الخمسة.

ومرَّ بها على ذلك زمن، وهي تعيش في جنبات القصر ماشطة لابنة فرعون المدَّعي للربوبية، وهو لايعلم من أمرها شيئاً، ياله من إله كاذب، كيف يكون للناس ربَّاً أعلى، وهو عاجز عن كشف ما يجري داخل قصره؟!

وذات يوم سقط المشط من يد الماشطة وهي تمشط شعر بنت فرعون، فقالت: باسم ربي، فقالت لها بنت فرعون: تقصدين أبي؟ قالت:

بل ربي الله تعالى إلهي وإله أبيك وإلهك.

كلام واضح لم تستطع الماشطة أن تدفعه، وتصدَّ عن لسانها حلاوة النطق به.

كانت كلماتها صدمة عنيفة لقلب بنت المكابر، لأنه كان قلباً مسكوناً بالغفلة، مخموراً بسكرة الوجاهة والملك.

ويعلم فرعون بما قالت الماشطة، فيزداد عمىً على ما هو فيه من العمى، ولا يتساءل عن السبب الحقيقي، ولا يجد حوله من المطبلين له من يرشده إلى الحق.

أزبد وأرعد، وطلب الماشطة ليتأكد، وجيء بها إليه، فأدهشه ما رأى من ثباتها، ورباطة جأشها، واطمئنان قلبها.

وسمع منها الحقَّ الصريح، الذي يعني في فهمه السقيم «الكفر الصريح».

وهدد وتوعَّد، وطلب منها أن تنطق بكلمة الكفر، فأبت كلَّ الإباء، ووقفت على قمَّة يقينها الشمَّاء.

ولولا مكابرة فرعون وغفلته، لرأى ــ عن طريق الماشطة ــ نور الحق، واهتدى إلى سواء السبيل.

هنا هزيمة نكراء لإنسان مغرور يدَّعي ما لايتفق مع نقصه البشري، وهنا فضيحة كبرى لذلك الإله المزَّيف الذي لايملك من أمر العاملين في قصره شيئاً. وكانت الهزيمة الكبرى في هذا الموقف متمثلة في أمر فرعون بأن تعذَّب الماشطة وتقتل أشد وأنكى أنواع القتل.

وجيء بها وبأبنائها الخمسة، ونصب أمامها قدر كبير يغلي فيه الماء، والنار من تحته تشتعل وهدَّدها بإلقاء أبنائها في هذا القدر واحداً واحداً إن لم تعلن كفرها بالله عز وجل، وتنطق بإقرارها بألوهية فرعون.

كان في وسعها أن تتظاهر بما أراد لتنجو بنفسها وبأبنائها من الانصهار في ذلك الماء الذي يغلي، مع بقاء إيمانها الحقيقي في قلبها، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أسرار القلوب ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ [النحل: 106].

ولكن جذوة الإيمان في قلب الماشطة كانت في أوج اشتعالها المضيء.

إنها تعيش ـ في تلك اللحظة ـ أحلى لحظات حياتها متعةً وراحة ضمير، وهي لحظة خاصة جداً تجعل الإنسان أكبر من كل تعذيب وألم.

وإنهزم فرعون المكابر شر هزيمة بعد أن نفذ حكم القتل الفظيع بإحراق أبناء الماشطة واحداً واحداً أمام عيني أمهم، ثم إلقائها في الماء المغليِّ بعدهم.

يقال: إنه سألها ماذا تتمنى قبل إلقائها في القدر، فقالت: أن تأمر بجمع عظامي مع عظام أولادي وأن تدفن في حفرة واحدة.

ويقال: إن رضيعها حينما أخذ ليلقى قبل أمه في القدر هزَّ قلبها الرقيق هزّاً، وأصابها حزن جارف وهو يصرخ فطيَّب الله قلبها بأن أنطقه فقال: لا تخافي يا أمَّه فأنت على الحق، فهان عندها كل شيء.

أين فرعون في هذه اللحظة؟

إنه مدفون في أسوء حفرة من حفر المكابرة والغرور والهزيمة الهائلة عقلاً وروحاً.

هل انتهى كلُّ شيء في حياة هذا المكابر العنيد؟

كلاَّ، فالأيَّام حبلى بالأحداث.

وقد سبقت قصَّته مع الماشطة وزوجها وأبنائها مواقف وعظات كثيرة.

هناك في مدين عاش موسى عليه السلام عشر سنوات بعد هروبه من فرعون وقومه، عشر سنوات قضاها في رعي الغنم لذلك الشيخ الذي التقى به موسى بعد أن سقى لابنتيه.

من ذلك الشيخ يا ترى؟

قيل هو شعيب عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوَّج بابنته.

وقيل اسمه شعيب، وكان سيد ماء مدين، ولكنه ليس بشعيب النبي.

وقيل: هو ابن أخي شعيب عليه السلام.

وقيل: هو ابن عمه.

وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقيل: هو رجل اسمه «يثرون» وهو في كتب أهل الكتاب كاهن مدين، أي: كبيرها وعالمها.

وقيل: اسمه يثرون وهو ابن أخي شعيب عليه السلام.

المهم: أنَّ هذا الرجل قد آنس من ابنته إعجاباً بموسى وأمانته وقوته حين قالت:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

رأى في شخصية موسى ما يدلُّ على ذلك، فعرض عليه أن يزوِّجه بابنته مقابل عمله لديه ثماني سنوات، فإن أتمَّ عشراً فهي من باب التفضلُ منه.

ومضت السنوات العشر.

وعزم موسى على الرحيل، عائداً إلى مصر، ومعه أهله وكان يريد أن يعود متخفياً عن فرعون لزيارة أهله هناك وعاد، ويالها من عودة عظيمة ما كان يحسب لها موسى عليه السلام حساباً.

انطلق موسى مودعاً صهره، ومعه زوجته وأولاده منها والغنم التي اكتسبها في فترة عمله.

كان الليل مظلماً بارداً وتاه موسى وأهله في الطريق، فلم يهتدوا إلى الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يقدح، وبينما هو في خضم هذا الليل المدلهم إذا به يبصر ناراً بعيدة تتأجج في جانب جبل الطور الغربي، وتشير بعض الروايات إلى أن موسى رأى تلك النار وحده دون أهله، لأنها ليست ناراً حقيقية وإنما هي نور أراه الله موسى عليه السلام.

هنا قال مستبشراً لأهله:

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: 29].

وعزم على الانطلاق إليها.

﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: 29].

وماذا جرى بعد ذلك؟!

تغيَّر الأمر كله، وبدأت رحلة النبوة والرسالة والدعوة من هناك.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: 44].

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 30].

تقول الروايات:

كان موسى في واد اسمه «طوى»، فأُمِرَ ـ أولاً ـ بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة في تلك الليلة المباركة.

وتشير بعض روايات أهل الكتاب إلى أن موسى عليه السلام وضع يده على وجهه من شدَّة ذلك النور، مهابةً له وخوفاً على بصره.

هنا أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده موسى ما أصبح به نبياً رسولاً.

وتأتي الدلائل القاطعة مباشرة.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17].

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: 18].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه: 19].

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: 20].

هنا تحولت طبائع الأشياء، لأن الله سبحانه وتعالى هو المتصرِّف فيها.

حية تسعى؟ إنه لأمرٌ مخيفٌ للإنسان.

ولكنَّها معجزة من المعجزات التي سيكون لها شأن عظيم، يقال: إن موسى هرب لمَّا رآها حيَّة تسعى فأمره الله عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدَّت عصا في يده.

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: 31].

يقال: إنها صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجانّ، والجان نوع من الحيات ذوات الحركة السريعة جداً.

هنا هرب موسى، ولم يعقب، أي: لم يلتفت.

فناداه ربُّه:

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: 31].

وماذا بعد؟!

أمر الله موسى أن يدخل يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء.

يالها من معجزة عظيمة!

لقد أصابت موسى الرَّهبة، ولهذا قال له ربه: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: 32].

قال ابن كثير: قيل: معناه: إذا خفتَّ فضع يدك على فؤادك حتى يسكن بذلك خوفك ويهدأ قلبك، وهذا العمل وإن كان هنا خاصّاً بموسى عليه السلام إلاَّ أنَّ بركة الإيمان به حقٌ، ينفع ـ بإذن الله ـ من فعله على وجه الاقتداء، فإنَّ من يرهب أو يخاف، فيذكر الله ويضع يده على قلبه، يجد الهدوء والسكينة.

هنا تلقى موسى الأمر من ربِّه بالرسالة، والبلاغ والدعوة لفرعون وقومه.

يالها من رسالة عظيمة..!.

لقد كان موسى عازماً على الدخول متخفيّاً إلى مصر حتى لا يعلم بوجوده فرعون الذي سبق أن أصدر حكماً بقتله قبل هروبه إلى مدين.

والآن يبعثه الله نبياً إلى عدوه الأكبر فرعون الذي يدعي أنه إله من دون الله.

إنها رسالة عظمية حقاً.

ولهذا قال موسى لربه:

﴿**إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ**﴾ [القصص: 33].

هنا يعبر موسى عليه السلام عن قلبه وخوفه من ذلك العدوِّ المتسلط، ويتبع ذلك بطلب يطلبه من ربه ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾**﴾ [القصص: 33].

لقد سأل موسى ربه العون والتأييد، فأجابه سبحانه إلى ما يريد:

﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ [القصص: 35].

ياله من وعدٍ إلهي صادق أشاع في نفس موسى عليه السلام الاطمئنان.

فهنا وعد بالنصر والتأييد والغلبة، مع أن موسى مايزال في أول الطريق.

إنها قدرة الإله العظيم سبحانه وتعالى.

ستبدأ الآن رحلة البيان والبلاغ والدعوة مع المكابر المغرور المتسلط «فرعون».

إنها رحلة عجيبة برز فيها دور المكابرة الخطير في إهلاك صاحبها.

ذهب موسى ومعه أخوه هارون إلى عدوهما الألدِّ فرعون فبلَّغاهُ الرسالة بوضوح، وأخبراه أنهما رسولان من رب العالمين.

لقد كانت مفاجأة مذهلة لفرعون الذي بدأ بمعاتبة موسى على قتله لذلك الرجل من قوم فرعون من قبل، وبتذكيره بأنه تربَّى في بيت فرعون وبقي عنده سنوات عدَّة في راحة ورغد من العيش.

واعترف موسى لفرعون بما في بعض كلامه من الحق، وذكَّره بأنه قد عبَّد بني إسرائيل واستخدمهم سنوات طويلة، مقابل ما حصل من رعايته لموسى حينما نشأ في قصره.

بدأت هنا رحلة المعاناة مع المكابر العنيد.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: 23].

قال موسى:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24].

هنا تحركت العنجهية والمكابرة، فالتفت إلى من حوله من رجاله الغافلين وتساءل:

﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 25].

لكأني بهم يهزُّون رؤوسهم مندهشين في إشارة تعبِّر عن مشاركتهم لسيدهم في المفاجأة المذهلة.

هنا ألقى إليه موسى الجملة الأخرى المكملة للمعنى:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: 26].

لقد تجاوز الأمر الحدود بصورة لم يكن يتوقعها فرعون ولذلك قال:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27].

كأنه هنا يحاول أن يتماسك، وأن يؤكد لحاشيته وأتباعه أن الحقَّ فيما هم عليه، وأن موسى الذي يقول ما يسمعون الآن «مجنون» وما دام كذلك فهو لا ينطق بالحق.

محاولة من مكابر أراد بها أن يصرف هذه المعاني الجديدة عن أذهان أتباعه، ولولا أن أتباعه قد غرقوا في غفلتهم لا نتبهوا إلى الحق الواضح، خاصَّة بعد أن قال موسى مكملاً رسالته:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: 28].

إنها حقائق ناصعة، وحجج دامغة، وظواهر كونية شاهدة بأن الله هو الإله الحقّ.

ولكنَّ مكابرة فرعون ما تزال واقفة أمامه كأنها حائط عظيم من الظلام إلبهيم.

لقد صرف ذهنه عن تلك الحقائق كلِّها، وبدأ يتحدث بمنطق المكابر المغرور:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: 29].

تهديد ووعيد، هي أدوات الطغاة المكابرين التي يغطُّون بها عجزهم وضعفهم البشريّ.

لقد ضاق ذهن فرعون المكابر عن إدراك الحقائق الكبرى التي ذكرها موسى له:

1- رب السماوات والأرض وما بينهما.

2- ربكم ورب آبائكم الأولين.

3- رب المشرق والمغرب وما بينهما.

إنه صغير العقل، ضعيف التفكير، أعمى البصيرة، وما دام كذلك فسوف يأخذه موسى عليه السلام على قدر عقله وفهمه الصغيرين.

قال له موسى عليه السلام:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: 30].

ليس هنالك شيء مبين أعظم من خلق السماوات والأرض والمشارق والمغارب والكون بما فيه والإنسان بما فيه. ولكنَّ المكابرين من البشر يحتاجون إلى أدلّة محسوسة تناسب عقولهم الضعيفة.

ولهذا قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: 30].

ياله من طاغية صغير العقل، ضعيف التفكير!!

في هذه اللحظة ألقى موسى عليه السلام عصاه أمام فرعون فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء يلمع بياضها العجيب كأنها فلقة من القمر تتلألأ.

تقول بعض الروايات: إن فرعون لما رأى العصا تتحول إلى ثعبان خاف وارتجف وحدث له إسهال عظيم احتاج معه إلى الخلاء أكثر من أربعين مرَّة.

سبحان الله العظيم!

أهذا إله كما يدَّعي؟!

ما تزال المكابرة عند فرعون حاجزاً، وما يزال ضعف أتباعه وذلُّهم عنده حاجزاً.

«لا فائدة»

اتهم فرعون موسى بالسحر، وتوعده بجمع أمهر السحرة وأقدرهم.

كل هذه الآيات الواضحة، والمعجزات البينات لم تخترق جدار المكابرة والغرور والجحود.

اتجه ذهن فرعون إلى تحطيم «سحر موسى»، فقد وقر في نفسه، وفي نفوس بطانته السيئة أن المسألة مسألة سحر وشعوذة، ولو كان يفكر بطريقة سليمة لعلم أنَّ ما حدث ويحدث لموسى منذ إلقائه في

التابوت وإلقائه في اليم ، وتربيته في بيت فرعون وهو عنه غافل، إلى مجيئه نبياً رسولاً، إنما هو معجزات واضحات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولو فكر رجال فرعون وخاصَّته بطريقة سليمة لانكشف لهم الأمر بجلاء، فها هو ذا فرعونهم الطاغية لا يستطيع أن يمسَّ موسى بسوء، ولايأمر بقتله، مع أنه يدعي القدرة على كل شيء، وإنَّ في هذا لدليلاً للعقلاء على أنَّ الأمر أكبر من فرعون، وأعظم من ملكه وطغيانه ومكابرته.

إنه أمر الوعد الإلهي الكريم لموسى وأخيه هارون

﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: 35].

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35].

المسألة هنا محسومة، ولكنها معلقة في عقول ونفوس الضالين.

جمع فرعون السحرة من كل مكان، فيا لهذا الإله الزَّائف الذي يحتاج إلى السحرة لتنفيذه ما يريد!

وما أعظم حلم الله عز وجل على هذا الجاحد العنيد!!

اجتمع السحرة في صورة مهيبة مخيفة، اجتمعوا ليهزموا سحر موسى في زعم فرعون.

كم كان عددهم؟

روايات متعددة يجنح بعضها إلى المبالغة، فقد قيل: إن عددهم كان ثمانين ألفاً، وقيل سبعين ألفاً، وقيل إنه كان بضعة وثلاثين ألفاً، وقيل تسعة عشر ألفاً، وقيل خمسة عشر ألفاً.

وروي عن ابن عباس أنهم كانوا سبعين رجلاً، ولعلَّ هذا القول هو الأمثل والأقرب.

ليس المهم عدد السحرة، وإنما المهم النتيجة.

بَهْرَجٌ كاذب، ومظاهر زائفة، سحرة متمرسون في سحرهم، مجيدون لفنهم، فماذا صنعوا؟

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116].

حبال وعصيٌّ تملأ الميدان تحوَّلت إلى ثعابين وحيَّات مخيفة جعلت موسى عليه السلام يوجس في نفسه خيفة مما يرى، ولأنَّه رسول من ربه فقد أوحى إليه سبحانه في اللحظة نفسها:

﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ [طه: 68].

ماالذي جرى بعد هذا التثبيت الإلهي؟

ألقى موسى ـ بأمر ربه ـ عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، عصا موسى عليه السلام تحوَّلت كما أشار إلى ذلك الرواة إلى: حية عظيمة ذات قوائم، وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت على كلِّ ما ألقوه فجعلت تبتلعه بسرعة هائلة أدهشت الناس.

أما أولئك السحرة فقد أيقنوا أن لامجال للشك في أنَّ الأمر فوق بهرجة السحر، إنه أمرٌ أكبر من أمور البشر، إنهم أمام معجزة إلهية لا سحر فيها ولاشعبذة ولا زور ولا بهتان.

هنا انكشفت عن عقولهم حجب الوهم، وزالت عن قلوبهم أستار الغفلة ورأوا موسى على حقيقته نبيّاً رسولاً.

فسجدوا لله رب العاليمن.

ماذا فعل المكابر «فرعون» وزبانيته؟؟

الجحود نفسه، والضلال نفسه، والمكابرة نفسها.

هذا موقف واضح تماماً، الأولى بالطاغية أن يدرك أبعاده وأن يسجد كما سجد السحرة، ومن يدري؟ ربما لو فعل ذلك لزاده الله تمكيناً في ملكه، مع ما يتحقق له من النجاة من عذاب يوم القيامة.

لكنَّ المكابرة لم تتزحزح عن نفس هذه الطاغية.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: 49].

سبحان الله ما أجهل هذا الإنسان وأشدَّ غفلته!.

ونسأل الله السلامة من هذا الفكر الأعوج الذي لا يستقيم أبداً.

هؤلاء سحرتك يافرعون، أنت الذي جمعتهم من كل مكان، لايعرفون موسى ولا يعرفهم، وأنت الذي اخترتهم لمهارتهم من بين آلاف السحرة، وأنت الذي جمعت لهم آلاف البشر ليشاهدوا معك هزيمة موسى.

فكيف تدَّعي أن موسى هو كبيرهم الذي علَّمهم السحر.

إنه الشقاء نسأل الله السلامة.

لقد رأى السحرة الحق الأبلج، وعميت عنه بصيرة فرعون وظل مسكوناً بوهم ألوهيته الزائفة، فاتخذ قراره المعتاد في مثل هذه الحالات.

﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [الأعراف: 124].

هذه هي حيلة المهزوم العاجز.

هذا هو منطق المكابر.

هذه هي لغة الغفلة والعناد.

أمَّا لغة المنتصر على هوى نفسه، ووساوس الشيطان.

لغةُ صاحب العقل والبصيرة، فهي لغة أخرى أسمى وأرقى. إنها اللغة التي حملت ذلك الإحساس العميق عند السحرة بعد أن رأوا شمس الحقيقة بلا حجاب.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: 70].

لغة قوية لا تعرف الضعف؛ لأن عقول من نطقوا بها قد تخلَّصت من قيود الأوهام، ولأن قلوبهم تحرَّرت من سيطرة الأهواء.

لقد استمرت لغتهم في رقيِّها حتى بعد التهديد والوعيد:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ [طه: 72].

هنا يظهر الإيمان بجلاء، وتتحقَّق فرصة كبيرة لفرعون أن يراجع نفسه لو سلم من مكابرته وعناده.

هل نفذَّ فرعون حكمه فيهم؟

يقول ابن كثير في تاريخه:

الظاهر من هذه السياقات أنَّ فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم ـ رضي الله عنهم ـ.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير:

كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126].

وماذا بعد هذا الدرس العظيم؟

هل توقف المكابر وأتباعه عند هذا الحدِّ؟؟

كلاَّ..

بل جاء دور «الملأ من آل فرعون» أولئك الأتباع الذين استخفهم فرعون فاتبعوه.

الذين قال لهم: «أنا ربكم الأعلى» فهزوا رؤوسهم الذليلة موافقين.

الذين قال لهم: «ما علمت لكم من إله غيري» فأرخوا جباههم خاضعين.

تحرَّك هؤلاء بعد هذا الحدث العظيم، حدث هزيمتهم النكراء أمام الحق في ميدان عام رآه الناس جميعاً، حدثِ إيمان سحرتهم إيماناً راسخاً كالجبال، حدثِ ظهور الحق الذي جاء به موسى حتى غدا كالشمس تراها عيون الناس جميعاً.

لقد رأى رجال فرعون، وخاصَّته أنهم يقفون موقفاً خطيراً الآن.

وأنَّ موقف بني إسرائيل قد أخذ يقوى بظهور هذه الآيات البيِّنات على يد نبيّ الله موسى عليه السلام.

فلا بد من عمل شيء.

إنها المكابرة التي تمسك بتلابيب فرعون وتجرُّه إلى الهلاك جرَّاً، وتمسك بتلابيب رجاله لتكمل مشهد مأساتهم الرَّهيب.

إنَّ الموقف العام عند هزيمة مكر فرعون وكيده يشير إلى أن الحق قد ظهر وبان، والباطل قد انكشف، وهذا موقف من مواقف مراجعة النفس، وفرصة من فرص اعتناق الحق لو كان فرعون ورجاله بمنجاةٍ من سيطرة روح المكابرة والعناد عليهم..!

أمَّا وهم ما يزالون في غمرة المكابرة، فقد جنحوا إلى زيادة الطغيان والعنف.

كيف؟

لقد قال الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء الذين أعمتهم مصالحهم ومناصبهم عن الحق: ﴿**أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**﴾ [الأعراف: 127].

هنا توجَّه العزم إلى إبادة قوم بكاملهم، وهنا ظهر حجم المكابرة الضخم الذي لايمكن أن يسمح بوصول بصيص من ضوء الحكمة إلى عقول القوم.

إنه اقتراح بالإبادة، وقد وافق هوىً في نفس الطاغية فرعون الذي كان تحت ضغط الهزيمة النكراء التي مني بها، وتحت ضغط ذلك الهتاف الجماهيري الكبير لموسى عليه السلام بعد انتصاره على سحر فرعون وكيده ومكره؛ ولهذا كانت الاستجابة السريعة من فرعون:

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127].

سبحان الله العظيم! ما أعظم غفلة هذا المكابر! وما أعرض قفاه! وما أسوء طويِّته..!.

إنَّ جملة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127] لتدلُّ على نفس مغلقة، وقلب جامدٍ لا يحسّ وعقل غافل لا يعي.

هزيمة وراء هزيمة تلحق بفرعون منذ ساق البحر ذلك التابوت حاملاً ذلك الرَّضيع إلى داره، ومع ذلك فهو ماض في مكابرته، مسرف في طغيانه.

ماذا قال موسى حينما بلغه خبر عزم فرعون على الإبادة الجماعية؟

قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

إنَّ في كلام موسى عليه السلام ما يوحي بأنها المعركة الفاصلة التي ستكون نهايةَ المكابرين فيها.

إنَّ قوَّة فرعون المادية ما تزال قوَّة ضاربة، ولكنَّ ما جرى في ذلك الميدان العامِّ من التهام عصا موسى لما جاء به السحرة يشيع روح الاطمئنان في قلب موسى وهارون ومن آمن معهما.

لقد عزم الطاغية على ارتكاب جريمة القتل لموسى وقومه وأخذ يردد ما يردده كل طاغية من عبارات التضليل والادعاء والتظاهر بالإصلاح، والكذب الصُّراح.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 26].

سبحانك يا ربي، هذا بهتان عظيم، وادعاء كاذب لايصدقه عاقل ولاجاهل.

ولكنَّ المكابرين هكذا يتحدثون ، وهم يعلمون أن قولهم غير صحيح، وأن الناس العقلاء يفهمون أنهم يكذبون، ولكنهم مع ذلك يدَّعون ويتحدثون، ومن حاول أن يقول كلمة الحق من الناس لقي من ظلمهم واعتدائهم ما لا يخطر له على بال.

هكذا تكون أبواق الباطل كاذبة خادعة.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: 26].

يالها من جملة مشحونة بالتضليل!

يقول ابن كثير: ولهذا يقول الناس على سبيل التهكُّم والسخرية «صار فرعون مذكِّراً ومرشداً».

المكابرة هنا تجاوزت الحدود، والظلم هنا يبحلق في موسى بعينين من لهب حارق ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

هنا لجوء إلى الله العليِّ القدير الذي يقصم بقوَّته ظهور الجبابرة والطغاة.

لقد تجاوز موقف فرعون الحدود، وهذا ما جعل مؤمناً كان يخفي إيمانه وهو من آل فرعون، يقولها مجلجلة في وجه فرعون ﴿رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 28].

سؤال صريح لا يقبل التأويل، سؤال مفاجئ لفرعون وأعوانه، سؤال لافت للنظر، هزَّ نفس فرعون، وأثار اهتمامه لأنه جاء من أحد أقاربه وأهل بيته.

يقول الرواة: إنَّ هذا المؤمن من آل فرعون هو ابن عمه، وأنَّ اسمه «شمعان»، وقيل إن اسمه «خير» وقيل إنه ابن فرعون الذي عرف فيما بعد بـ «أخناتون» وهو في رأي بعض المؤرخين «ذو القرنين» المذكور في سورة الكهف، في تفاصيل كثيرة ليس هذا مقام نقلها.

ولربما كان هذا القول راجحاً بدليل أن فرعون لم يعاقب هذا المؤمن من أهل بيته.

ومما يروى عن ابن عباس قوله:

إنه لم يؤمن من القبط بموسى عليه السلام إلا ثلاثة:

1- الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينذر موسى ويحذِّره من القتل، وينصحه بالهروب.

2- آسية امرأة فرعون.

3- مؤمن آل فرعون هذا الذي نصح فرعون هذه النصيحة لقد قال «مؤمن آل فرعون» قولته الواضحة، واستخدم أسلوب الترغيب والترهيب:

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: 29].

سؤال واضح، وموعظة ذات قيمة كبيرة عند من يعي.

أما المكابر فرعون فقد أغلق الباب مباشرة أمام هذا المؤمن من أهله قائلاً: **﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** [غافر: 29].

عبارة مغلقة تماماً، مظلمة تماماً، متغطرسة تماماً؛ أيّ سبيل للرشاد يهدي إليه فرعون؟؟

سؤال يشتعل في ثياب الطاغية ليحرق زيفه وكذبه، هكذا تقوم الحجج الدامغات على فرعون وهو سادر في غفلته؛ غارق في مكابرته.

إنه يقترب بنفسه من سوء عاقبته، ويستدني بمكابرته هلاكه ولحظة نهايته.

لقد زاد تخبُّط فرعون، وفقد توازنه وطلب من وزيره المكابر هامان أن يبني له صرحاً طويلاً لعله يرى من قمته إله موسى الذي يدعيه، وسواءٌ أكان جاداً أم ساخراً من موسى بهذا القول، فإنه قول يدل على الانغلاق.

وماذا بعدُ في هذه الرحلة العجيبة؟!

لقد زاد الله سبحانه وتعالى حججاً وبراهين وآيات أخرى لعلَّه يستيقظ ويثوب إلى رشده.

ونقول: سبحان الله العظيم، ما أوسع حِلْمَهُ، وما أعظم رحمته بعباده.

لقد ذهبت نصيحة «مؤمن آل فرعون» أدراج الرياح، فجاءت آيات متعاقبات:

1- **الطوفان:** أمطار غزيرة، وفيضانات أتلفت الزروع والثمار، حتى إذا خرَّبت الديار لجأ قوم فرعون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله لكشف ما حصل، ويعدونه بالتوبة، فيدعو الله سبحانه، وتنكشف الغمَّة ولا يتوبون.

2- **الجراد:** حيث جاءهم أفواجاً سدّت عليهم الأفق فلم يترك لهم زرعاً ولا ثمرا فطلبوا من موسى الدعاء ووعدوه بالاتباع، فلما دعا وانكشف البلاء أعلنوا إِصرارهم على كفرهم.

3- **القـمَّل:** قـيل هـو السـوس الذي يخـرج من الحـبـوب، وقـيل هو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له، وقيل هو دوابٌّ سود صغار، وقيل هي البراغيث، وقيل هو القَمّلُ المعروف الذي ينتشر في شعر الرأس. ومما يروى أن موسى عليه السلام قد أمر من ربه أن يمشي إلى كثيب من الرمل، وأن يضربه بعصاه، فتحول قُمَّلاً وانثال على قوم فرعون حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم؛ وعند ذلك طلبوا من موسى الدعاء ووعدوه بالاتباع فدعا وأجاب الله دعوته، ثم نكثوا عهدهم.

4- **الضـفـادع:** تكاثرت عليهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع فطلبوا من موسى الدعاء فدعا وانكشف البلاء وأصرُّوا على عنادهم.

5- **الدَّم:** حيث مازج كلَّ ما يشربون فلا يستقون ماءً إلا وجدوه دماً خالصاً؛ يحدث ذلك لقوم فرعون ولايحدث لموسى وقومه، فلما اشتد عليهم الأمر طلبوا الدعاء من موسى، فدعا، فانكشف البلاء وأصرُّوا على ضلالهم.

إن هذه الآيات والدلائل المعجزات لكافية تماماً، بل إنَّ واحدة منها تكفي لبيان الحق، وقد اقتضت إرادة الله عز وجل أن تأتيهم هذه الدلائل لتؤكد للناس مرّة بعد أخرى عجز فرعون، وبطلان ادعائه الربوبية، فلو كان إلهاً قادراً كما يدعي لما وقف عاجزاً عجزاً تاماً أمام كلِّ آية أيَّد الله بها موسى عليه السلام.

لقد أكدت المواقف المكابرة من فرعون وقومه بعد هذه الآيات كلِّها، أنهم في حالة من الجحود والكفر والضلال لا دواء لها، وأنَّ قلوبهم قد أصبحت أقسى من الحجارة؛ فما عاد فيها للموعظة مكان.

إنها المكابرة التي لا مجال معها لوعي ولا مكان فيها لتذكير؛ فماذا بعد هذا كلّه؟؟

لقد تأمَّل موسى شأن هذا المكابر وقومه فرأى منهم إيغالاً في المكابرة، وهي مبالغة في العصيان، مع ما آتاهُم الله من النعم، والقوة، والأموال والأولاد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: 88].

قال المفسرون: هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضباً لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصدِّه عن سبيل الله ومعاندته وعتوِّه برغم كل ما جاءه من الآيات والنذر والمعجزات.

دعوة من موسى وافقت باباً مفتوحاً، فأوحى الله إلى نبيه أنَّ هذه الدعوة قد أجيبت، وأنَّ فرعون وقومه قد استحقوا النهاية اللائقة بأمثالهم، كما استجاب الله سبحانه وتعالى من قبل لنبيِّهِ نوح عليه السلام حينما تمادى قومه في ضلالهم فدعا عليهم.

كيف كانت النهاية؟!

لقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عبده الآبق المكابر فرعون بأنه قد علا في الأرض بغير الحق وتجبر فيها. وبأنه قد أسرف في ضلاله وتجاوز الحدَّ.

وبأنه قد قابل كل الدلائل والمعجزات بالجحود والنكران.

وهنا لابد من الجزاء.

بدأت نهاية الطاغية، بتوجيه من الله إلى نبيه موسى عليه السلام.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: 87].

قال المفسرون: إنَّ هذا أمر من الله إلى موسى وأخيه بأن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة منحازة عن بيوت القبط قوم فرعون ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمرهم الله به، لأنهم إذا انحازوا عن قوم فرعون استطاعوا معرفة بيوتهم، وتمكنوا من الاجتماع حينما يأمرهم الله بالرحيل في أسرع وقت ممكن، كما أمرهم بأن يستعينوا بإقامة الصلاة والصبر حتى يأتي الفرج.

قال ابن كثير في تاريخه:

استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وقد كان ذلك مكيدة منهم ليخرجوا وليتخلصوا من فرعون وقد أمرهم الله أن يستعيروا

حلياً من قوم فرعون لاستعمالها في عيدهم فأعاروهم شيئاً كثيراً، فخرج بنو إسرائيل في ليل بهيم وانطلقوا طالبين بلاد الشام فبلغ ذلك الخبر فرعون، فاشتد غضبه وأمر بتجهيز جيش عظيم ليلحقهم ويسحقهم .

هنا نزل القضاء المبرم ولهذا عميت البصيرة الفرعونية تماماً، فما عاد يفكر في الأمر تفكيراً سليماً.

إن مكابرته جعلته يعيش غيبوبة الاحتقار لبني إسرائيل، ومنعته من استذكار كل الآيات والمعجزات التي جاء بها موسى، ولو فكَّر فرعون تفكيراً سليماً لأدرك أن موسى منصور من ربِّه، ممنوع منه، ولو لم يكن كذلك لتمكن فرعون أن يقتله من قبل.

لقد انطلق فرعون بجيشه العظيم كالذي أصابه الجنون فلحق بموسى وقومه عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان وتقابل الجيشان، وزال كل شك من النفوس، وأصبح كلّ من الفريقين أمام حقيقة كبرى لمعركة كبرى لا مناص منها.

هنا قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

فالبحر أمامهم، وجيش فرعون العرمرم خلفهم، وصورة جبروت فرعون وظلمه على مدى سنوات طويلة تسيطر على عقولهم فقالوها عالية بها أصواتهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

هذا كلام البشر بمقاييسهم المادية.

أما كلام النبي المرسل موسى عليه السلام فقد جاء مناقضاً لما قالوه: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

هكذا تتجلَّى النهايات العظيمة: فرعون وجيشه يتمّيزونَ غيظاً ويتجهزون للانقضاض على بني اسرائيل والتهامهم، وقوم موسى في وجلهم وخوفهم، وموسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام، ومعهما مؤمن آل فرعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينظرون إلى البحر وإلى جيش فرعون وفي قلوبهم اطمئنان إلى تحقق وعد الله «قد أجيبت دعوتكما».

كان موسى واقفاً أمام البحر في موقع لم يحد عنه قائلاً: من ها هنا أمرت، ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون عليهم السلام جميعاً.

وكان مؤمن آل فرعون يحاول أن يقتحم بفرسه البحر ويقول لموسى: يا نبيَّ الله أهاهنا أمرك الله؟ فيقول موسى: نعم.

ظلّ الأمر على هذه الحال وقد دنا أوَّل جيش فرعون من المكان، وبلغت قلوبُ القوم الحناجرَ، هنا أوحى الله عز وجل إلى موسى: «أن اضرب بعصاك البحر».

يالها من عصا عجيبة قامت بدورها الكبير منذ أن بدأ الوحي إلى موسى عليه السلام، وستظل تقوم بأدوار جليلة إلى أن يفارق موسى الحياة.

انفلق البحر اثنتي عشرة طريقاً، وأصبح ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً صلباً بقدرة الله عز وجل.

انطلق بنو إسرائيل في طرقات البحر اليابسة وفرعون وقومه ينظرون إليهم فاغري الأفواه، مشدوهين لا يستطيعون أن يقولوا كلمة واحدة.

أليس هذا مقام موعظة عظيمة؟

ألم يكن بوسع فرعون أن يصرخ بها مدوية أمام هذا الحدث العظيم: «آمنت بالله».

بلى، كان بإمكانه ذلك لولا حاجز المكابرة.

قال الرواة: إنه التفت إلى قومه فقال مكابراً كاذباً: أرأيتم كيف انفلق البحر حتى ألحق بهؤلاء العصاة؟! وكأني برؤوس الغافلين الذين معه تهتز موافقة له في دعواه.

لقد كان فرعون موقناً في دخيلة نفسه أنه أمام معجزة عظيمة، ولكنَّ مكابرته حالت دون اعترافه بالحق.

لقد تردَّد وتهيَّب من سلوك تلك الطرق العجيبة في البحر ولكن قدر الله سبحانه وتعالى إذا نزل لا يمكن أن يُرَدَّ .

فمما يروى أن جبريل نزل بفرس مرَّ بها أمام حصان فرعون فحمحم الحصان وانطلق وراءها داخلاً في طرقات البحر، وفرعون لا يريد، لقد دخل المكابر ودخل معه جيشه العرمرم حتى إذا استقروا في طرقات البحر أمر الله البحر أن يعود إلى طبيعته الأولى.

عاد البحر كما كان فطمس معالم جيش عظيم.

سبحانك يا عظيم.

ماذا جرى للمكابر فرعون؟؟

لما رأى الموت الحقيقي وعلم أنه غارق لا محالة قال: ﴿آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

أرأيتم أيها الأحبة؟ تأمَّلوا هذه الكلمة التي قالها فرعون في هذا المقام، إنها الكلمة التي كان يجب عليه أن يقولها من أوَّل لقاء له بموسى عليه السلام.

لقد جنت عليه مكابرته، فتأخرت كلمة النجاة إلى الوقت الذي لم يعد لها فيه قيمة.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى له:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: 91].

سؤال لا جواب له عند فرعون المكابر العنيد، وكيف يجيب وهو من الغارقين؟!

كان بنو إسرائيل في حالة ذهول وهم ينظرون إلى هذه المعجزة العظيمة، ويقال: إنهم لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ومات بسبب ما عانوا من طغيانه الطويل.

لكأنني بهم في هذا المقام يتذكرون قولهم لموسى قبل انفلاق البحر وعبوره:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

فيخجلون من أنفسهم ومن موسى، ومن رب العالمين:

أما موسى فهو في أسمى حالات خضوعه لربه العظيم الجليل: ألم يقل في أحلك المواقف:

﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

وهو بذلك في أرقى حالات شعوره بالنصر المبين.

مات فرعون.

مات المكابر العنيد..

مات الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

نعم لقد مات وانتهى، وحتى يكون موته ونهايته عبرة للناس فقد طفا جسده فوق الماء.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92].

في لحظة قصيرة تغيَّرت المعالم، واختلفت المقاييس، وأمام الجموع البشرية التي كانت مستضعفة من فرعون، انتهت حكاية كانت كابوساً جاثماً على صدر مصر وما حولها، انتهت مملكة عظيمة كان لها صيتها، انتهى جيش جرَّار كانت له صولته في البلاد.

أين الأنهار التي كانت تجري من تحت فرعون؟

أين الكرسي المرصَّع بالجواهر الذي كان يجلس عليه؟

أين الأتباع الذين كانوا يطيعونه في باطله دون تردُّد أو اعتراض؟

كلُّ ذلك ـ انتهى ـ في لحظة واحدة.

تلاشى أمام قدرة الله الذي يقول: «كن»

وإذا قال ـ سبحانه ـ: «كن» لأي شيءٍ «كان».

نهاية جاءت بعد إمهال طويل من خالق الكون الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وأحاط علمه بكل شيء وهو على كل شيء قدير.

وقفة مع مؤمن آل فرعون:

في كتابٍ يسمى «فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج» أشار الباحث «حمدي بن حمزة أبو زيد» إلى أن مجموعة من الدلائل والمواقف تشير إلى أنَّ مؤمن آل فرعون الذي وقف مع موسى ونافح عنه في قصر فرعون، إنما هو «أخناتون» ابن فرعون نفسه، الذي كان اسمه «امنحوتب الرابع» وهوابن «امنحوتب الثالث» الملك الفرعوني الطاغية، وطرح مؤلف الكتاب السابق الأستاذ «حمدي» عدداً من الافتراضات التي بناها على دراسات ومتابعات، وأسفارٍ متعددة، رأى أنها ترجح ما ذهب إليه من أن «أخناتون» هو مؤمن آل فرعون المذكور في القرآن، وأنه ابن فرعون الذي أغرقه الله مع جنده بعد رحلة طويلة من العناد والمكابرة، بل إن الكاتب ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فأشار إلى أن العلاقة قد نشأت بين موسى وأخناتون في قصر فرعون الذي نشأ فيه موسى وترعرع، وتوطدت بينهما العلاقة، وبناءً على ذلك رجَّح الكاتب أن الذي أخبر موسى بعد أن قتل القبطي الذي كان في شجار مع رجل من بني اسرائيل فوكزه موسى فقضى عليه،

إنما هو أخناتون نفسه، إما أنَّه أسرع إلى موسى وأخبره أن القوم يريدون قتله، وإما أنه أرسل أحد الثقات من رجاله ليخبر موسى، فهرب عليه السلام إلى مدين.

وحينما عاد موسى رسولاً إلى فرعون كان أَخناتون على معرفة سابقة به، فآمن بما جاء به سرّاً، وبقي يكتم إيمانه حتى رأى المؤامرة الكبرى من فرعون وحاشيته على موسى وقومه بعد الآيات والمعجزات التي جاء بها، وفضح بها أمر فرعون، هنالك، قال «أخاتون»:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: 28].

ومما رأى الكاتب «حمدي أبو زيد» أنَّ عدم إقدام فرعون على قتل هذا المؤمن من أهله، وعدم إقدام أحد من رجال فرعون ومستشاريه وحاشيته على تحريض فرعون على قتله، دليل على أن هذا المؤمن ذو قرابة خاصةٍ لفرعون، ولن تكون هذه المنزلة إلا للابن.

ثم يذهب الكاتب إلى أن أخناتون كان مع موسى حينما وقف بقومه أمام البحر، ومن ورائه جيش فرعون، وأنه عبر مع موسى البحر بعد أن صار رهْواً حين ضربه موسى بعصاه، وأنه عاد بعد هلاك والده فرعون وجنوده إلى مصر ليتولى الملك بعد أبيه وأنه كان مؤمناً، ونادى إلى الإيمان بالله، ولقي مواجهة عنيفة من الكهان وغيرهم، وأن جيشه كان ضعيفاً بعد أن أغرق الله سبحانه وتعالى معظم الجيش الذي كان مع والده، وأنه رحل بعد سنوات إلى جهات عديدة، فهو «ذو القرنين»

الذي وردت قصته في سورة الكهف، وقد بقي في الصين بعد بناء الرَّدم بين السدين دون يأجوج ومأجوج، وأصبح ملكاً متوجاً فيها، وقد توارث الملك عدد غير قليل من أبنائه في الصين.

وذكر المؤلف عدداً من الأخبار والمشاهدات المثيرة يمكن للقارئ الكريم والقارئة الكريمة أن يعودوا إليها في الكتاب المذكور سابقاً؛ ونقول:

كم في الكون من أسرار لا يعلمها إلاَّ الله

المكابر الثامن
«إنما أوتيته على علم عندي»

حينما يفقد الإنسان القدرة على التفكير السليم، والرؤية السديدة لحقائق الأشياء، وحينما تنطمس البصيرة التي تساعد صاحبها على رؤية الحق، فإن الإنسان يتحول في هذه الحالة إلى مستوى هو أدنى من مستوى البهائم.

﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

لماذا يهبط الإنسان المكابر المصاب بعمى البصيرة إلى هذا المستوى المتدني؟.

لأنه يصبح أعمى البصيرة، مطموس الفطرة، فلا هو في منزلة الحيوان الذي يتصرف بفطرته، ولاهو في منزلة الإنسان الذي يتصرَّف بعقله ووعيه، وهنا يهبط الإنسان المكابر إلى ما هو أدنى من منزلةِ الحيوان.

لا يمكن لصنف من أصناف الحيوان أن يقول كلمة الكفر والجحود والإنكار لله عز وجل.

بينما يقول الإنسان المكابر ذلك.

لا يمكن لأي صنف من أصناف الحيوان أن يغفل عن تسبيحة لربِّه فهو مرتبط بالله بطبعه.

أما الإنسان فيتعمد أن يقول كلمات الكفر والجحود، متجاوزاً بذلك مرحلة الغفلة عن ذكر الله وتسبيحه «وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده».

فكل المخلوقات تسبح الله بطريقتها الخاصة والمكابر ينقطع عن هذا التسبيح.

لا يمكن لأيٍّ صنف من أصناف الحيوان أن ينحرف من حيث الممارسات الجنسية عن طبيعته التي خلق عليها أما الإنسان المكابر فهو يرتكب أسوأ الأفعال في هذا المجال.

إن لسان المكابرة لسان بذيء، مجبول على النطق بما يسوء من الكلام، والتحدث بما لايجوز من العبارات وادِّعاء ما لايصح من الأعمال والأقوال.

هذا مكابر عنيد، فتح الله له خزائن الدنيا فما زال يجني منها ويزداد ثراءً حتى أصبح مضرب مثل في ذلك. أموال طائلة، وأملاك عظيمة، وترف لا يكاد يصدقه من رآه.

خزائن الأموال مازالت تكثر عدداً حتى أصبحت عبئاً عليه. وحتى غدت مفاتيحها حملاً ثقيلاً تحتاج إلى عدد من الرجال يتعاونون في حملها.

دنيا مفتوحة على مصراعيها لهذا الإنسان، يحصد المال حصداً ويبني من الحصون ما أراد، ويقيم من المزارع والبساتين ما أراد.

كل شيء من متاع الدنيا بين يديه.

نعمة عظيمة، حقُّها على صاحب القلب السليم الشكر لله عز وجل على ما سخَّر منها وأنعم.

أما الإنسان المسكون بالجحود والمكابرة فله مع النعمة شأن آخر.

غرور، كبرياء، إعجاب بالنفس، استهانة بالناس، انغماس في الملَّذات المحرَّمة، ابتعاد عن طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته.

هذا هو شأن هذا المكابر الذي أنكر فضل الله عليه وقال وهو في سكرة غروره.

«إنما أوتيته على علم عندي».

يقول: هذا المال الكثير، وهذه النعمة العظيمة جاءت من معرفتي وذكائي ودرايتي ومقدرتي وليس لأحد فضل في وجودها.

وهو بهذا القول يتناسى خالقه المنعم المتفضِّل، وهنا تكون لحظة الانحدار من الإنسان إلى ما هو أقلُّ من مستوى الحيوان.

إلى أين يتجه هذا الغيُّ المترف المكابر؟ وإلى أيِّ نهاية تسوقه مكابرته؟؟

من هذا المكابر الذي قال هذه الكلمة العظيمة جاحداً بها فضل ربِّه؟

هو: قارون بن نبصهر بن قاهت.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى وكان اسم موسى عليه السلام: موسى بن عمران بن قاهت.

وقال بعضهم: إنه عمٌّ موسى، ولكن ابن كثير نقل عن ابن جرير الطبري في تفسيره للآيات الخاصة بقارون في سورة القصص قوله: وأكثر أهل العلم على أن قارون ابن عم موسى، وقال قتادة بن دعامة فيما نقله عنه ابن كثير في التفسير: كان قارون يسمَّى «المنوِّر» لحسن صوته حينما يتلو التوراة.

قال الرواة: مازال المال والثراء بقارون حتى نافق، وانحرف عن الطريق المستقيم، وهجر التوراة، وزاد في طول ثيابه شبراً يجرُّها على الأرض ترفعاً عن قومه وكبراً وبطراً.

وقد أخبرنا القرآن الكريم بقصة قارون في آيات بينات في سورة القصص، ذكر الله سبحانه وتعالى فيها أنه كان من قوم موسى فبغى عليهم.

وامتن الله عليه بما أنعم عليه من النعمة

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76].

قال المفسرون: الكنوز هي الأموال الكثيرة التي امتلأت بها الخزائن حتى أصبحت المفاتيح ثقيلة على الفئام من الناس لكثرتها.

قال خيثمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من الجلود، كلُّ مفتاح منها مثل الإصبع، لكلِّ خزانة مفتاح خاصٌّ بها، فإذا ركب حملت مفاتيحه على ستين بغلاً أغرَّ محجَّلا.

ونحن نقول: مهما كان العدد الذي بلغته تلك المفاتيح، ومهما كان عدد الخزائن والبغال التي تحملها، فإن العبرة بهذه الثروة الطائلة ابتلي بها قارون.

الثروة التي صرفته عن الإيمان، وتلاوة التوراة، وأبعدته عن ابن عمه موسى عليه السلام، كما أبعدت السَّامريَّ الذي صنع العجل ودعا إلى عبادته في غياب موسى.

والذي يبدو من أقوال المفسرين، وهو ما تدل عليه الآيات القرآنية أن قارون قد جاوز الحدَّ في التطاول والكبرياء والاحتقار الناس مما جعل قومه كلَّهم كما دلَّت على ذلك الآية:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ﴾ [القصص: 76].

ومعنى ذلك أن الرجل قد بلغ من المكابرة والجحود مبلغاً لم يجد معه أحداً من قومه يؤيده، ولذلك وجهوا إليه النصيحة. «لاتفرح».

أي: لاتبطر بما أنت فيه من الأموال، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحب الفرحين «أصحاب الأشر والبطر والاغترار» الذين لا يشكرون الله سبحانه وتعالى على ما آتاهم من فضله ونعمته.

لقد كانت نصيحة قوم قارون له شاملة لمعان كثيرة، دالّةً على حرصهم على مصلحته، وإشفاقهم عليه من النهاية السيئة التي ينتهي إليها المكابرون الجاحدون فيما جُرِّبَ فيه سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون.

لقد دعوه إلى التوسط في الأمر، وعدم الإفراط أو التفريط:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77].

نصيحة واضحة، غالية جداً عند من يقدِّر ثمن النصائح والمواعظ، أما المكابر فإنه يصرف نظره عنها محتقراً لها ولأصحابها.

هذه النصيحة البليغة ذهبت أدراج الرياح، ولم يصل منها إلى قلب قارون حرف واحد.

ما لدليل على ذلك؟

الدليل قوله الذي دلَّ على غفلته ومكابرته وغروره: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78].

قال قولته هذه مكابراً، بعيداً عن الإحساس بفضل الله ونعمته عليه.

إن معنى كلامه هذا أنه ينفي افتقاره إلى الله ولا يذكر ما نصحه به قومه، ويعتقد أنه يستحق هذه النعمة لما له من الفضل، وكأنه يقول:

إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولأنه يحبني، ويعلم أنني أهل لهذه النعمة.

وورد عند بعض المفسرين أن قارون أراد بكلامه هذا أنه كان يعالج علم الكيمياء وكان به عارفاً، وقد أنكر ابن كثير هذا القول وأخبر أنه بعيد عن الصواب لعدم ثبوته.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله فتموَّل بسببه ونال ما نال من الثَّراء، ويؤكد المفسرون أن المعنى الأول هو الأصح، فالرجل اغترَّ بنفسه حتى رأى أنه مستحق للنعمة كما قال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قال قارون: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال.

منطق مقلوب، ورؤية قاصر، وتفكير معطَّل، وبصيرة عمياء ولذلك استمر قارون في مكابرته، كما استمر قبله فرعون، فماذا كانت النتيجة؟؟

خرج قارون ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمُّل باهر، ومظهر أدهش الناظرين، وحرَّك أشجان الفقراء والمساكين.

مراكب فارهة.

ملابس غالية الثمن برَّاقة الألوان.

بغال وخيول نادرة.

خدم وحشم.

إنه موكب «الغفلة» بلا شك.

هنا انبهر الناس، وتطلَّعت نفوس الضعفاء الذين أعجبهم بريق المظهر، وتاقت نفوسهم إلى شيء من نعيم الدنيا حتى قالوا: ﴿**يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص: 79] أمنيَّةٌ صريحة، وحلم واضح، وتفسير خاطىء لهذا المظهر البرَّاق. ﴿**إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص: 79].

بل هو أسوأ حظ لإنسان خرج عن دائرة الخضوع لله رب العالمين، هنا تحرك أهل العلم، وقد رأوا هذا المظهر القارونيَّ المثير، وسمعوا تلك الأمنيَّةَ التي تمنَّاها الناس، وقالوا واعظين:

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: 80].

وهذا توجيه إلى ما عند الله من الخير العظيم لعباده المؤمنين الذين سيرون في الجنة ـ إن شاء الله ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

موقف مثير تتكون لوحته العجيبة من ثلاثة مناظر:

1- قارون في مظهره وثرائه ومراكبه وخدمه وحشمه.

2- الميالون إلى مظاهر الدنيا من البشر.

3- العلماء الذين يعرفون أن الدنيا متاع زائل لا قيمة له.

فهي لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

أين يقع الحق من هذه اللوحة العجيبة؟

لا مجال للإجابة المفصلة عن هذا السؤال، ولا مكان للكلام والمناقشة والجدال، ولا موقع للاستشهاد والاستدلال عجباً، فأين نجد الجواب؟!

الجواب مباشر لايحتاج إلى تفكير.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: 81].

انتهى في لحظة واحدة كل شيء في حياة قارون.

انتهى المال، والجاه، والدار الكبيرة والمفاتيح الثقيلة، والخزائن المليئة بالأموال الطائلة، وقارون الذي يجرُّ ثوبه وراءه شبراً بطراً وخيلاءَ.

كل ذلك انتهى، إذ ابتلعت الأرض بأمرٍ من خالقها قارون وما معه، والناس ينظرون، ولايكادون يصدقون ما تراه عيونهم.

هنا استيقظ الغافل، وتعلم الجاهل، واستغفر المتجاوز للحد، واطمأنَّ الخائف الوجل، وهدأت نفس الطامع.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: 82].

وقد ذكر بعض الرواة أنَّ هلاك قارون كان بسبب دعوة عليه من نبي الله موسى عليه السلام، وذكر لذلك أسباباً:

قال ابن عباس: إن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالاً على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني اسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله فتقول :

يا موسى، إنك فعلت بي كذا وكذا، فلما قالت لموسى ذلك أرعد من الفَرَق والخوف، وأقبل عليها بعدما صلى ركعتين ثم قال لها: أنشدك بالله الذي فرق البحر، وأنجاكم من فرعون، وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ماقلت؟

فقالت: أمَّا إذ نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول لك ما قلت، وأنا استغفر الله وأتوب إليه.

عند ذلك خرَّ موسى ساجداً، وسأل الله أن يستجيب له في قارون، فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه.

فأمر موسى ـ بإذن الله ـ الأرض أن تبتلع قارون وداره فكان ذلك.

ورويت القصة بوجه آخر:

قيل: إنَّ قارون لما خرج على قومه في زينته تلك، وهو راكب على البغال الشهب، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمرَّ في مظهره ذلك على نبي الله موسى عليه السلام، وهو يذكر الناس بأيام الله ويعظهم، فلما رأى الناس قارون ومظهره التفتوا إليه، يتعجبون مما هو فيه فدعاه موسى وقال له: ما حملك على ماصنعت؟

فقال في غطرسة وكبرياء:

يا موسى إن كنت قد فضلت عليَّ بالنبوة، فلقد فضِّلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن ولتخرجن، فلتدعون عليَّ وأدعو عليك.

فخرج موسى وخرج قارون معه و هو في خدمه وحشمه.

فقال موسى: تدعو أم أدعو أنا؟

قال قارون: بل أنا أدعو، فدعا فلم يستجب له.

ثم دعا موسى عليه السلام قائلاً: اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم.

فأوحى الله إليه أني قد فعلت.

فقال موسى: يا أرض خذيهم؟، فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم؛ ثم قال موسى: أقبلي بكنوزهم وأموالهم.

قال: فأقبلت بها حتى رآها الناس.

ثم أشار موسى بيده فاستوت بهم الأرض.

وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة.

نهاية يستحقها المكابر، حدثت بالصورة التي قدَّرها الله سبحانه وتعالى، وإني لأعجب ـ أيها الأحبة ـ من المكابرة كيف تطغى على عقل صاحبها، فيصبح بلا تفكير.

إن كل موقف من مواقف قصة قارون يدل على أنه كان معطل التفكير تماماً، وهذه سمة أهل المكابرة.

لو لم يكن أعمى البصيرة لما واجه موسى بهذه المكابرة مع أنه يعلم بنبوة موسى وبما أوتي من المعجزات.

حتى حينما اتفق هو موسى على الدعاء.

دعا قارون فلم تستجب دعوته، ألم يكن الأولى به هنا أن يراجع نفسه وأن يتوب إلى رشده، وأن يطلب من موسى عليه السلام عدم الدعاء عليه؟؟